الفصل الثاني

رؤى الحجاب
وخبرات ارتدائه في تورونتو

بعد ثلاثة أشهر من بداية ارتدائي الحجاب، طردت تلميذة عمرها ثلاثة عشر عاماً من مدرستها في مونتريال، في مقاطعة كويبك في كندا، لأنها رفضت أن تخلع غطاء رأسها داخل الفصل. وفي شهر نوفمبر، خيرت تلميذة أخرى في إحدى مدارس مونتريال بين خلع الحجاب أو النقل إلى مدرسة أخرى[1]. وأشعلت الواقعتان جدلاً في كل أنحاء كندا حول معنى الحجاب ومكانه في المجتمع الكندي. كان الجدل حول معنى غطاء الرأس في كندا يرجع إلى أن ارتداءه عادة «غريبة»، ولابد للكنديين أن يقرروا هل يمكن أن يقبلوه ويعدوه «أصيلاً» في المجتمع. قامت هيئة الإذاعة الكندية في عام 1995 بإذاعة تحقيق إعلامي عن القضية، وفي نهاية البرنامج سأل مذيع الهيئة: «هل يمكن أن يجتاز الحجاب اختبار الهوية الكندية؟»[2] كانت التلميذتان اللتان طردتا كنديتين (ميلاداً ونشأة)، ولكن لم يبد لطارح السؤال أن لذلك صلة بالموضوع. كان الحجاب جديداً ولم يكن يُعد في ذلك الوقت سوى عادة «أجنبية».

كتب جيفي سمبسون مقالة في «ذا جلوب آند ميل» يقول فيها إن للمسلمات الحق في ارتداء الحجاب إذا رغبن في ذلك. وقد أشعل رأيه استجابة غاضبة من امرأتين قالتا: إن الحجاب وبلا شك، علامة على قهر المسلمات. فكتبت مونا بلانك تقول:

أهون ما يوصف به رد سمبسون على معارضي الحجاب أنه غافل، وأشد ما يوصف به هو عدم الأمانة... فقد أهمل الارتباط بين الحجاب وقهر النساء، وهو أمر واضح وسيدركه القراء حتماً بأنفسهم. وأنا لا أرى أن في عمامة [السيخ] وغطاء رأس طائفة «المينونايت» تهديداً بحرب مقدسة ضد من لا يتفقون مع مرتديها في المعتقد. ولكن هذا الارتباط قائم بين الحجاب والجهاد. ولتطمئن أنني وغيري من «المعترضات

المخطئات»، لا نعتقد ولو لدقيقة واحدة أن مرتديات الحجاب إرهابيات عاشقات للسلاح من داخلهن وليس هذا ما نقصده، فما نقصده هو أن هذا استخدام غير حكيم، وفي غير وقته لرمز مشحون بالدلالات، في وقت يشكو فيه الكثيرون في الغرب من تنامي العنف الأصولي الإسلامي[4].

إن ما سبق نموذج استشراقي كلاسيكي:

- الجهاد يساوي عنفاً إسلامياً غاشماً (ضد أناس أبرياء لمجرد أنهم غير مسلمين)
- الحجاب رمز للإسلام؛ ومن ثم فوجود الحجاب يعني أن من ترتديه تريد أن تشن حرباً مقدسة على الكنديين غير المسلمين.
- الحجاب رمز لقهر النساء.

لا يمكن أن يرحب عاقل بمثل هذه الدلالات الرمزية في كندا. أما المسلمون فعدوا هذه الاستجابات السلبية للحجاب مجرد أمثلة جديدة على العنصرية الغربية[5].

وفي خضم هذه المساجلات العامة ضاعت أصوات النساء المحجبات أنفسهن، صحيح أن مذيع هيئة الإذاعة الكندية قابل إحدى الفتاتين صاحبتيّ الشأن، وكذلك بعض المسلمات ليناقشهن في شأن ارتداء الحجاب، ولكن أصوات النساء لا تزال بعيدة عن آذان كثير من الكنديين (وإن سمعت لا تفهم جيداً). ويسعى هذا الفصل إلى ملء هذا الفراغ عن طريق تقديم أصوات بعض الكنديات المسلمات المحجبات. إن طرح السؤال «هل يمكن للحجاب أن يجتاز اختبار الهوية الكندية؟» من وجهة نظر المحجبات يكشف استجابات شديدة الاختلاف عما قدم، في إطار التقرير المختزل لهيئة الإذاعة الكندية.

إذا كان صوت المرأة المسلمة بشأن الحجاب غير مسموع في الثقافة الشعبية الغربية، فالموقف في الأدبيات الأكاديمية أشد تعقيداً. شهدت هذه الساحة ظهور صوت غاب طويلاً في حقل دراسات المرأة والإسلام، ولكنه صوت لا يزال تمثله كتابات مرتابة تشك في اعتبار قبولٍ للذكورية[6]. وهناك بالتأكيد عدد من الدراسات الأكاديمية عن نساء مسلمات مرتديات للحجاب ويعشن في الغرب[7]. ومن الطبيعي أن نرحب بأي تيار يفسح مكاناً إيجابياً للمرأة المسلمة ولكننا في حاجة إلى المزيد.

أ ـ المنهجية النسوية والحجاب

للنسويات خبرة أصيلة بشعور التمثيل المشوه، والإقصاء من الخطاب السائد؛ فقد بذلن جهوداً كبيرة في تحدي التمثيل الأكاديمي للنساء و«طبيعتهن»، ودورهن في المجتمع وما إلى ذلك. بذلت النساء تلك الجهود لأن تجربتهن، أي ما يرينه في أنفسهن أو ما يشعرن به، لم يدركه الخطاب الذكوري السائد. ففي الأيام الأولى من نسوية «الموجة الثانية الغربية» (في عقد السبعينيات من القرن العشرين) اتخذت خبرة النساء أنفسهن مرجعية المعرفة، وكما كتبت دوروثي سميث: «العلاج هو أن نضع خبرة النساء في الاعتبار حتى يتحقق التوازن، ويمكن تمثيل رؤى النساء وخبراتهن بالتساوي مع رؤى الرجال وخبراتهم»[8]. وينطبق هذا على إقصاء أصوات النساء من الخطاب السائد عن معنى الحجاب وعن كونه قهراً لهن، فلابد من تدارك هذا الخطأ بالاستماع إلى صوت النساء اللاتي يتحجبن طواعية حتى نعرف دوافعهن ورؤاهن وخبراتهن. وأعود إلى دوروثي سميث إذ تقول: «حينما نعامل نحن النساء بعضنا البعض، ونعامل أنفسنا على أساس أننا موضع اهتمام بعضنا البعض؛ حينها فقط يمكن أن نكسر صمتنا وأن نجعل صوتنا مسموعاً»[9]. وأنا في هذا الفصل أقدم، على نحو إيجابي قدر الإمكان، أصوات بعض المسلمات، اللاتي اخترن ارتداء الحجاب في بلد ليس مفروضاً عليهن ارتداؤه فيه، بل ويواجهن فيه مصاعب جراء ارتدائه. وأنا أستخدم خبراتهن لتفنيد التمثيل السلبي لهن في صورة المقهورات.

تتحدث ليز ستانلي وسو وايز عن النساء عموماً فتقولان:

إن القول بأن النساء تجمعهن خبرات القهر، لا يعني أن لنا الخبرات ذاتها. فالسياقات الاجتماعية التي يعيش فيها صنوف النساء المختلفة، وتعمل وتكافح وتسعى لإيجاد معنى لوجودهن، تختلف اختلافاً كبيراً بين مختلف مناطق العالم، وبين مختلف التجمعات النسائية. قلنا إن خبرة «النساء» في حالة تشظٍ وجودي، وهي كذلك معقدة لأننا لا نشترك جميعاً في واقع مادي واحد متناغم[10].

فإذا كان الحديث عن المسلمات؛ فربما يوجد خطر في قبول فكرة «التشظي الوجودي» لخبرة النساء، وهو خطر التسليم بوجود اختلاف جوهري عن «الآخر» الغريب. ولكن ذلك لا يمنع صلاحية الفكرة العامة؛ فليست كل المسلمات جماعة متناغمة، كما أن خبراتهن في ارتداء الحجاب ليست واحدة، وبرغم اجتماعهن على الإسلام فهن يأتين من خلفيات شديدة التنوع من حيث العرق والسلالة والطبقة، وهن يلبسن الحجاب لأسباب مختلفة، كما تختلف أساليب حياتهن وطموحاتهن وفهمهن لأنفسهن. وينطبق هذا على المسلمات داخل الوطن الواحد، أو بين دولة وأخرى؛ فإن معنى الحجاب عند امرأة في إيران قد يختلف تماماً عن معنى الحجاب لدى امرأة في تورونتو بكندا. وقد يختلف معنى الحجاب بين امرأة في طهران (عاصمة إيران) وامرأة من قم (مدينة إيرانية أخرى)، كما قد يختلف بين امرأة تعيش في شقة وجارتها التي تعيش في شقة أخرى في المبنى نفسه. وبالطبع فإن معنى الحجاب وخبرة ارتدائه قد تتطابق أو تتشابه بين هؤلاء النساء، فالمقصود هو تجنب افتراض التشابه في الخبرة بسبب التشابه في المظهر. لابد أن تعامل كل امرأة بوصفها حالة فردية. والمقصود هنا هو تفنيد فكرة أن الحجاب بالضرورة لون من ألوان قهر النساء المسلمات، برجاء تغيير هذه الفكرة. صحيح أن بعض النساء يجدنه قهراً ولكن القول المأثور عن الحجاب (أي باعتباره قهراً ولا سيما المنتشر في الثقافة الشعبية والصحف والكتب التي تخاطب عموم الناس) يغفل احتمال أن بعض النساء ربما لا يجد فيه هذا القهر[11]. كما أن إبراز «تشظي الخبرة» يعني إبراز ضرورة تحديد اختلاف زوايا النظر للحجاب[12].

ترى دوروثي سميث أن أي منهج نسوي [ينبغي أن] يحرص على إبقاء الشخص موضوع البحث نشطاً وقادراً وفي موقع العارف بالبحث، أي العارف الذي ينبغي أن تخاطبه نصوصنا»[13]. ولكن واقع الحال يثبت أن نسويات كثيرات، ينكرن على نساء العالم الثالث والسود والمسلمات هذا الدور. فرضت صورة «الضحية» و«المذعنة» و«المقهورة» على المسلمة، وفي وسط هذا التصنيع للصورة النمطية السلبية، أنكر على المرأة المسلمة أن يكون لها حق الفعل أو الاستقلالية أو أي «منظور

نقدي»[14] على موقفهن[15] وغالباً ما يفسر أي تأييد للإسلام وتعاليمه على أنه نموذج «للوعي الزائف».

وأرجو أن أنجح في إثبات أن اختيار الهوية الإسلامية، لا يعني أن النساء يتشربن خلاصة مركزة من صنع «الوحش» الإسلامي. وستعرض المقابلات الشخصية ما تقوله النساء عن هوّياتهن، ومفاهيمهن عن الذات، وما يرينه من معانٍ لأفعالهن، وستتحدث النساء عن خبرة لبس الحجاب في كندا، وهل يشعرن بتناقض بين كونهن «كنديات» وكونهن «مسلمات». وبرغم الإقرار بالمشكلات المرتبطة بقبول الخبرة المباشرة كما هي، فالمهمة الأولى سماع هذه الأصوات النسائية وبعدها فقط يمكن تأويلها[17].

ب ـ المقابلات الشخصية

في أول الأمر، كانت قائمتي للمقابلات الشخصية تضم إحدى وعشرين امرأة، وبعد ست عشرة مقابلة أدركت أن حجم ما تجمع لديّ من بيانات أكبر مما أستطيع عرضه، فتوقفت عند الرقم ستة عشر. وكانت الخطة الأولية تشمل مقابلات شخصية مع مسلمات من طوائف إسلامية مختلفة، السنة والشيعة والإسماعيلية إلى آخره. ولكن العمل الفعلي كان مع خمس عشرة امرأة سنية وواحدة من الطائفة الإسماعيلية. جرت المقابلات بين شهري مايو ويوليو من عام 1996، وكان أغلب من قابلتهن شخصياً يعشن في منطقة تورونتو الكبرى، أونتاريو، كندا. وفي معظم الأحيان كن ممن قابلتهن وسط مجموعات الطالبات وحلقات تعليم القرآن التي كنت أحضرها والاحتفالات الدينية. كانت النساء، بوعي أو بغير وعي، جزءاً من الحركة الإسلامية، بمعنى أنهن لم يكن أتباع مذهب ولا من المتصوفات، كما كان أغلبهن غير راضيات عن الإسلام التراثي الذي لم يمنحهن كل حقوقهن الإسلامية. وكن جميعاً يرتدين أشكالاً حديثة غير تقليدية من الحجاب. وكان منهن ناشطات في المجتمع الإسلامي بتورونتو، يلقين المحاضرات ويظهرن في التلفاز لمناقشة الإسلام أو يعملن في منظمات المجتمع غير الربحية، وكان بعضهن يذهبن للمسجد بانتظام لحضور حلقات الدرس والصلاة ومجموعات اللعب للأطفال. كان بعضهن يعملن داخل البيوت وبعضهن لا يفعلن. وكان ست من الست عشرة حديثات عهد بالإسلام، وكان عشر منهن

يرتدين الحجاب طوال الوقت (خمس منهن من معتنقات الإسلام حديثاً) وخمس منهن يرتدين الحجاب أحياناً، واثنتان فقط من هؤلاء النساء لم ترغبا في ارتداء الحجاب طوال الوقت في مرحلة ما في المستقبل. كانت واحدة فقط من النساء الخمس عشرة السنيات لا تؤدي الصلوات الخمس، وبهذا تعد النساء الخمس عشرة (ومن بينهن «نهى» (الإسماعيلية النشطة في مجتمعها الديني) «متدينات»[18] وهن بهذا الوصف جزء من شريحة رقيقة بين المسلمين في أمريكا الشمالية يشاركن بفاعلية في أنشطة المسجد (بين 1 ـ 5%)، حسب تقدير الباحثين في شؤون الإسلام في أمريكا الشمالية[19]. ولكن دراستي هذه كيفية لا كمية، فأنا لا أعمم من آراء من قابلتهن على «كل المسلمات». كان هدفي ببساطة أن أكتسب فهماً دقيقاً لما يراه عدد محدود من النساء في شأن الحجاب.

جرت المقابلات الشخصية مع كل امرأة إما في الحرم الجامعي، أو في بيت المرأة نفسها. وكان لديّ قائمة بأسئلة مفتوحة (انظر ملحق 4). كما تم تسجيل المقابلات صوتياً ثم تدوينها. وقد استمرت كل مقابلة بين الساعة ونصف الساعة والثلاث ساعات؛ فإذا كنت في بيت المرأة كنت عادة أدعى إلى الغداء أو إلى شاي وكعك، بعد انتهاء المقابلة، حسب وقت المقابلة. وإذا كنا في بيت المرأة فكلانا لا تغطي شعرها، ولأننا كنا في الصيف، فقد كانت المرأة غالباً ما ترتدي شيئاً ذا أكمام قصيرة، وإذا كانت المقابلة قبيل وقت صلاة مكتوبة، فقد كنا نصلي معاً بعد انتهاء المقابلة. ولقد غيرت أسماء من أجريت معهن المقابلات الشخصية إلى أسماء مستعارة حتى أحافظ على سرية الأسماء.

جـ ـ رؤى الحجاب

1ـ لماذا الحجاب؟

يتوجه الكنديون إلى المسلمات المحجبات أحياناً بقولٍ نحو «هذه كندا، أنت حرة هنا، لست مضطرة أن تضعي هذا الشيء على رأسك». قد ترى المحجبة مثل هذا التعليق طريفاً أو مزعجاً، حسب أسلوب توصيل هذه المعلومة. تلقت صديقتي التونسية

«وردية» ذات يوم هذا النوع من «التطمين» من امرأة بيضاء متوسطة العمر داخل إحدى الحمامات العامة، ودُهِشت المرأة، وشعرت بالإحراج عندما ردت وردية بحماس بأنها ترتدي الحجاب طواعية، لأسباب دينية وليس لفرض اجتماعي: «في بلدي ألقى في السجن بسبب ارتدائه»[20]. وقد بدأت وردية ارتداء الحجاب بعد خمس سنوات من مجيئها إلى كندا.

أما نور وهي طالبة جامعية من جنوب آسيا[21]، فواجهت موقفاً أكثر إيلاماً في مقصف المكتبة ذات مرة، عندما اقتربت منها امرأة مسنة وسألتها بعداء ظاهر: لماذا «تأتي بالتخلف إلى كندا». وأكدت المرأة أن النساء «عملن بجد شديد في كندا للحصول على حقوق المرأة»، وأن ارتداء الحجاب «سيدمر كل هذا». وما إن أوضحت نور أنها لا تقصد بحجابها لفت الانتباه إليها أو أن تجعل نفسها «هدفاً سهلاً للكراهية»، وأن الحجاب لا يعدو أن يكون «أمراً دينياً»، «بدأت المرأة... تهدأ»، برغم «أنها لم تكن مقتنعة بعد»، ربما لأنها تعتقد أن نور لا ينبغي أن ترتدي الحجاب مهما كانت الأسباب.

قدمت كل من وردية ونور أسباباً دينية، عندما أرادتا أن تفسرا للنساء الكنديات غير المسلمات لماذا ارتديتا الحجاب في كندا. كان جميع من قابلتهن شخصياً، ومن بينهن فاطمة، والتي تختلف حتى عن النساء اللاتي لا يغطين شعورهن طوال الوقت، إذ إنها نادراً ما تغطي شعرها، وليس لديها الرغبة في ذلك مستقبلاً، كان كل نساء العينة يعتقدن أن ارتداء الحجاب أمر ديني. وعندما سألتهن لماذا يعتقدن أنه أمر ديني، أجبن جميعاً إجابات مثل «إنه في القرآن» أو «يأمر الله به في القرآن»، وكذلك أشارت «باسمة»، وهي إنجليزية اعتنقت الإسلام، إلى أن «الأحاديث تقول عندما تبلغ المرأة المحيض ينبغي ألا يظهر منها غير الوجه والكفين».

وأما «نادية»، وهي كندية من أسرة ذات أصول كاريبية، فقد بدأت ارتداء الحجاب في سن الرابعة عشرة، وكانت ترى ذلك خطوة طبيعية؛ فقد تأثرت بفتيات أكبر سناً في المسجد يرتدين الحجاب، وكانت تكن لهن احتراماً بسبب ملابسهن المحتشمة وسلوكهن القويم. كما أن نادية ارتاحت للبس الحجاب لأنها تؤمن بأنه «الأسلوب

الإسلامي السليم لما يجب أن ترتديه المرأة». وبرغم أنها ترى الآن أن الرابعة عشرة مبكرة لبدء الالتزام بارتداء الحجاب طوال الوقت، فهي ليست نادمة على ما فعلت، لأنها تعتقد أنها لو لم ترتده حينها وانتظرت حتى تصير أكبر سناً، ربما لم تكن لترتديه بشكل دائم أبداً.

بدأت نور ارتداء الحجاب في سن الثالثة عشرة، وقالت إن ذلك لم يكن بالخطوة الصعبة بالنسبة إليها لأنها نشأت على الالتزام بالدين الإسلامي، وتعلمت أن الحجاب «جزء من المجمل الإسلامي». وكانت نور تشجع على طرح الأسئلة عن الدين وعلى مناقشة قضاياه. كان ارتداء الحجاب أمراً بدأته بالتدريج، أي كانت ترتديه أثناء الصلاة، ثم في طريقها إلى المسجد، ثم طوال الوقت. بدت نور مرتاحة جداً في الحجاب، وذلك ـ على الأرجح ـ لأنها «قبلت الحجاب» عندما قبلت «المجمل الإسلامي». وكان ذلك معناه موافقتها على عمل «أشياء معينة». في ذلك الوقت، لم تكن هناك من ترتدي الحجاب غيرها من نساء أسرتها؛ إذ كان الحجاب عندهن يرمز إلى «التخلف وضيق الأفق». ولكن جدتها بدأت ترتدي الحجاب وهي في الخامسة والستين، وارتدته أمها قبل المقابلة الشخصية بمدة قصيرة.

من بين النساء اللاتي لم يلبسن الحجاب طوال الوقت، كان أربعة يعتقدن أن ارتداءه طوال الوقت واجب ديني، ويرجون ارتداءه في المستقبل. قالت خديجة، وهي من الشرق الأوسط وفي الخمسين من عمرها، أن تربيتها هي التي تجعل أمر الحجاب صعباً عليها، ولكن لديها نية ارتدائه طوال الوقت. فقد نشأت في الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة للاحتلال الأوروبي، حينما كانت النخبة تحاول تقليد البريطانيين، وتحتقر كل ما هو إسلامي: «كان أثر البريطانيين قوياً هناك»، وكان ذلك منعكساً حتى على أفلام نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، حيث «كانت الممثلات يرتدين ملابس فاضحة»؛ إذ كان ارتداء الملابس الغربية المسايرة للموضة يعزز مكانة المرأة الاجتماعية، مما يعني أن «الحجاب لم يكن مطروحاً» لأنه لم يكن «أوروبي المظهر».

تحول الحجاب إذاً إلى علامة على التدني الطبقي، ورمز للفقر والتخلف والقبح. وصفت خديجة الطبقتين الاجتماعيتين الموجودتين في ذلك الوقت «بالنخبة وهي...

ما يقابل السيدات والسادة في بريطانيا...والذين يتأنقون في ملابسهم، بمتابعة أرقى الأزياء الأوروبية. والطبقة الأخرى ممن يرتدون ملابس متواضعة وتتحجب نساؤهم، وما إلى ذلك، وكان هؤلاء الناس هم الفقراء الذين يعملون لدى الفئة الأولى. وهكذا نرى الفرق؛ فإذا...ارتديته [أي الحجاب] فأنتِ من الطبقة الأخيرة».

كان الحجاب لدى خديجة يرمز إلى «الإصرار والقوة والشجاعة والإخلاص للدين الإسلامي». ولكنها كانت تتوتر بسبب لفت الانتباه إليها في الأماكن العامة، عندما كانت ترتدي الحجاب لتذهب إلى المسجد، فكانت ترتديه وهي تعبر الشارع من سيارتها إلى مبنى المسجد. كانت خديجة تؤكد أن ما يمنعها [من التزام الحجاب] هو ذكريات طفولتها عن التمييز الطبقي المرتبط بما يلبسه المرء. «تربينا في [بلدي] على ضرورة أن نظهر على أفضل نحو... لذلك كان شاقاً عليّ للغاية، أن أبدو فجأة بصورة تختلف اختلافاً بيّناً إلى هذا الحد». مع ذلك فقد كانت خديجة دائمة المديح للمحجبات، كما دعمت قرار ابنتيها المراهقتين بارتداء الحجاب طوال الوقت في عام 1994.

كانت إيمان، ابنة فاطمة، وهي طالبة جامعية في أوائل العشرينيات من عمرها، ترتدي الحجاب في الصلاة، وعند حضور المناسبات الإسلامية، وكانت تؤمن بأن القرآن يفرض ارتداء الحجاب طوال الوقت على المرأة المؤمنة، وتأمل أن تلتزم به في المستقبل. فما الذي يمنعها من ارتدائه؟ كانت إيمان تخشى إن ارتدت الحجاب ألا يتعامل معها الناس بنفس الود الذي تلقاه منهم حالياً. فصديقاتها المسلمات يروين لها حكايات عن التعليقات التي يتلقينها من الناس عن حجابهن، وهي ترى أن كون الإنسان محط الأنظار دائماً أمر يرهق الأعصاب. كانت إيمان تشعر بضغط ضرورة التكيف، وكانت تخشى أن «يفصلها» الحجاب ويجعلها «مختلفة». كما كانت تخشى الإيحاءات السياسية المرتبطة بالحجاب في العقل الغربي: «لست إنساناً سياسياً، ولا أريد أن يظن الناس أن غطاء رأس، مثلاً، رسالة سياسية». وهكذا فما يمنع إيمان من ارتداء الحجاب في المقام الأول هو الخوف من ردود الأفعال العدائية من المجتمع الكندي الأوسع؛ فالقلق من التفسيرات أمر مهم، إذ إن صورة الحجاب لدى الغربيين هي أنه رسالة سياسية معادية للغرب (هل نذكر مقولة لوبلانك السابقة؟).

كانت فاطمة، في أواخر الأربعينيات من عمرها، ونهى، في منتصف العشرينيات، وهما من أصول آسيوية/ أفريقية لا ترتديان الحجاب، ولا ترغبان في ارتدائه مستقبلاً. نشأت فاطمة في وسط آسيا حيث كان الإسلام يوصم بالتخلف، وحيث جرت محاولة «لتحديث» الدولة على النسق الأوروبي. وتشبه خبرة فاطمة في بلدها خبرة خديجة، حيث صار الحجاب رمزاً للفقر والتخلف. أما ابنة فاطمة، رانيا، فكانت محجبة طوال الوقت (كما سيرد لاحقاً)، وكما رأينا فإن ابنتها إيمان تتمنى أن تفعل ذلك، لكن فاطمة نفسها بدت مذبذبة بين موقفين: فهي مسلمة مؤمنة بدينها، وحزينة لأنها لم تطبق الإسلام على نحو أكمل، وفي الوقت نفسه لا تزال مقتنعة بما يقال عن الحجاب والمظاهر الإسلامية الأخرى مما تشربته صغيرة. وبرغم أن الشعب في بلادها أيّد مساعي رئيسه في إنشاء دولة حديثة قوية، فقد لاحظت أن الدين كان يتعرض للتجاهل، لا سيما في المدن صغيرةً وكبيرةً، حيث تراجع الحرص على ارتداء الحجاب، برغم أن أغلب النساء في القرى لا زلن يرتدينه. مع ذلك فقد ظهرت علامات صحوة دينية بين أبناء الجيل الجديد وبناته، وهذا ما أقلق فاطمة، إذ تصورت أن ذلك ربما يؤدي إلى انتقاد الرئيس الذي فعل الكثير لتحديث البلاد، وأكدت أنهم حققوا التحديث لكنهم لا يزالون يتمسكون بقيمهم.

سألت فاطمة ابنتها عن الحجاب، وكذلك سألتني لماذا من المهم أن تغطي المرأة شعرها؟ وقالت إنها كانت تفكر في التحجب في بعض الأحيان، لكنها لن تفعل حتى تؤمن حقاً أن «له أهمية كبيرة» وبدا عليها القلق من صعوبة التحجب، خاصة إذا أرادت المرأة أن تعمل، فإنها بسببه ستواجه نظرات كثيرة موجهة إليها وتساؤلات في قطار الأنفاق. لم تكن فاطمة مقتنعة بالتفسير الإسلامي المعتاد، الذي يقوم على أن التعامل بين الذكور والإناث يكون أسهل، عن طريق استبعاد عوامل الجذب الجسدي من الموقف. وعندما سألتها لماذا في رأيها تغطي النساء شعورهن؟ قالت إن هذا أمر ديني، وإن الرجال يجدون جاذبية في شعور النساء. وهي نفسها لم تتعرض لأي تحرش من الرجال، لأنها لم تبد لهم أي تشجيع، وحافظت على المقاييس الأخلاقية العالية التي تربت عليها.

وتتندر فاطمة بقولها: إن الناس في بلدها يقولون أحياناً لو أن زوجك أمرك بأن تتحجبي ولم تفعلي، فقد بَرِئَ من ذنبك يوم القيامة، لأنه أدى ما عليه، «وأنت مسؤولة أمام اللّه عن عدم تحجبك». وقالت إن زوجها لم يطلب منها أن تتحجب قط؛ لأنه يرى أن ذلك ينبغي أن يكون قرارها الخالص، مع ذلك فهي تحب المحجبات وتمتدحهن لكونهن «مسلمات صالحات أحمل لهن طوال عمري المشاعر الطيبة»، برغم أنها خاضت صراعاً مع ابنتها رانيا عندما قررت الابنة أن تتحجب بشكل دائم ـ سيرد ذلك لاحقاً ـ وبرغم أن أم فاطمة ونساءً غيرها في العائلة محجبات.

أما نهى فلأنها من الطائفة الإسماعيلية، فقد كان لها فهم مختلف للقرآن والسنة. قالت نهى إن الإمام منح النساء الإسماعيليات في الأربعينيات رخصة بعدم التحجب، لمن لا ترغب في ذلك. كانت آراء نهى في الحجاب مزيجاً من الآراء الإسلامية والآراء الغربية النمطية. فقد كانت ترى أن الحجاب ربما يستخدمه الرجال وسيلة للسيطرة على النساء، ولكنها تراه حالياً أقرب إلى «الأمر الأنثوي... للتعبير عن الذات». كان لنهى صديقات شيعيات وسنيات عديدات يرتدين الحجاب، وتعرف منهن أن هذا فرض عليهن، كما أنه تعبير عن هويتهن الإسلامية في كندا. وقالت إنها أحياناً كانت تفكر في التحجب من باب الفضول، ولكنها لا تحب عموماً أن تكون «لافتة للنظر... بل أحب أن أكون جزءاً متجانساً مع الجو المحيط».

إن الاعتقاد بفرضية عمل من أعمال الدين شيء وأداؤه فعلاً شيء آخر؛ فبعض النساء، لا سيما حديثات العهد بالإسلام، يجدن في البداية مشقة وصراعاً في مسألة ارتداء الحجاب. تعترف «إيلين»، وهي كندية سوداء حديثة العهد بالإسلام، وارتدت الحجاب في سن الخامسة والثلاثين، بصعوبة ارتداء الحجاب أول الأمر لأن شعرها كان مصدر فخر لها. فقد نشأت على وضع غطاء رأس صغير على شعرها، مثل عدد من النساء في كنيستها، ولكن العقبة الصعبة جاءت بعد أن صارت راشدة، فقد كانت تحتاج إلى شجاعة كبيرة لترتدي الحجاب في العمل. وبعد بحث واسع عن المعلومات المتاحة عن الحجاب، قررت إيلين أن طاعة اللّه أهم من إرضاء الناس، فارتدت الحجاب في البداية في طريقها إلى المسجد والأماكن العامة الأخرى دون صعوبة، لكنها «وجدت أن ارتداءه في العمل وطوال الوقت أمراً صعباً».

أما إليزابيث، وهي أنجلو كندية اعتنقت الإسلام حديثاً، فقد بدأت ارتداء الحجاب على نحو دائم في سن الخامسة والعشرين، ولكن ذلك لم يكن مريحاً، بسبب ما كانت تجده من ردود أفعال سلبية من زملائها في العمل، فخلعته بعد أسبوعين. وعندما سألتها متى ولماذا بدأت ارتداء الحجاب، قالت إنها أرادت أن ترتديه من البداية، وإنها أخيراً نفذت ذلك عندما عادت إلى تورونتو بعد رحلة وراء البحار، ولكن خطيبها، وهو عربي مسلم، لم يكن موافقاً على اعتناقها الإسلام، وأزعجه ارتداؤها الحجاب؛ وهي لذلك لا ترتديه في حضوره. كانت إليزابيث تشعر طوال حياتها أنها مختلفة عن غيرها، وقد وجدت أن الإسلام «كان شيئاً متمماً [لها]» وقد قررت أن ترتدي الحجاب لأن ذلك كان «الشيء الصائب، ولا أظن أن في هذا شكاً».

أما «رنيم» فقد رأت في الحجاب الحل لمشكلاتها في العمل. ففي أول الأمر وجدت صعوبة في ارتدائه؛ إذ لا تزال تصوراتها عن المسلمين والعرب سلبية. وشأن كثير من المسلمات حديثاً، كانت تشعر أنها «سفيرة» للإسلام ولابد أن تحرص على أن يكون سلوكها على أفضل نحو طوال الوقت. في البداية ارتدت رنيم الحجاب لصلاة الجمعة فقط. وهي تعترف أنها احتاجت إلى ستة أشهر حتى تقبل فكرة ارتداء الحجاب دون أن يتملكها القلق بشأن ردود أفعال الآخرين، وستة أشهر أخرى حتى تتخلص من شعورها العارم بالذنب والمسؤولية لكونها مسلمة: «بعد ذلك، زال ذلك الشعور،فأنا لا أستطيع أن أبلغ الكمال بين عشية وضحاها... كان ذلك الشعور يغمرني أحياناً في بداية الأمر». يُبيِنّ خوف رنيم من أن يظن أحد أنها عربية (برغم أنها تزوجت عربياً فيما بعد) مدى تأثير التنميط العنصري للعرب في الإعلام الغربي، على الذين يعتنقون الإسلام.

اعتنقت «حليمة» الإسلام بعد زواجها بعدة أشهر، وقبل أن تلتزم بارتداء الحجاب كانت ترتديه لبعض الوقت، في المواقف التي «لا تنطوي على مخاطرة» مثل الأماكن التي لا تعرف فيها أحداً أو عندما يزورهم أصدقاء زوجها. واعترفت حليمة بأن إرضاء زوجها كان من أسباب ارتدائها الحجاب لأول مرة؛ فقد كان يحب أن تفعل ذلك عندما يأتي أصدقاؤه إلى البيت، ولم تكن تمانع في ذلك، ولم يكن زوجها يكرهها

عليه؛ فكلاهما يؤمن بأن المسلم ينبغي أن يفعل ما يفعل قاصداً وجه الله، وليس لإرضاء البشر. لذلك فإن قول زوجها الدائم لها: «لا تفعلي ذلك من أجلي بل لوجه الله» كانت تدرك منه أنه يود لو ترتدي الحجاب، لكنه يريدها ألا تفعل ذلك إلا عندما تشعر أن ذلك هو الصواب. لم تكن حليمة منتظمة في ارتداء الحجاب، حتى شعرت بالنفاق؛ إذ تلبسه حيناً وتخلعه حيناً. فكان خوف النفاق هو ما دفعها إلى أن تدرك أنه طالما أن القرآن أمر الناس بالتزام الحجاب، فلابد لها أن تنفذ: «إن لم تطع فما مبلغ علمك صدقاً؟... وإن كنت تؤمن بحق فلابد أن يكون الإيمان حياتك... لا أن يكون ... نصف حياتك أو جزءاً منها... شعرت كأني منافقة؛ ولم أرد أن أكون منافقة».

وأحياناً لا يكون الصراع داخلياً بل مع أفراد الأسرة الذين لا يريدون للمرأة ان تتحجب. فقد أرادت «صفية» أن ترتدي الحجاب في كندا ولكن زوجها منعها. كان صراع الحجاب يخصه أكثر منها. كانت صفية من شمال أفريقيا، في منتصف العشرينيات من عمرها تعيش في كندا منذ أوائل التسعينيات. بدأت صفية ارتداء الحجاب وهي في سن التاسعة عشرة لأنها تؤمن بأنه من «قواعد ديني»، وكانت أمها وأخواتها محجبات. تزوجت صفية في سن الرابعة والعشرين، وبعد ستة أشهر كانت تتعرض لضغوط من زوجها لتخلع الحجاب؛ برغم أن نساء أسرته محجبات، إذ لم يكن زوجها يحب غطاء الرأس، ففي رأيه أن غطاء الرأس غير منطقي؛ وأن كل النساء سواء، فلماذا يجب أن تغطي صفية شعرها؟ ولأن صفية تؤمن بأن القرآن يأمر بالحجاب، سألتها عن رد زوجها على هذه الفكرة. فقالت إنه لا يعلم كثيراً عن الإسلام. وكانت تحاول إقناع زوجها بأن يكون مسلماً عاملاً بدينه بعض الشيء، كأن يصلي ويلتزم «بقواعد الدين الأخرى». فهل هكذا تستمتع صفية بارتداء الحجاب؟ أجريت المقابلة الشخصية مع صفية بعد عامين ونصف العام من خلعها الحجاب وكانت تفتقده كثيراً. وبرغم أن زوجها لم يكن يرفض أن ترتديه في بلدها الأم عندما يزورونه؛ كان يؤكد اعتراضه عليه في كندا. عندما وصلت صفية إلى كندا، لم تشعر بقوة كافية لمقاومة زوجها؛ لأنها كانت في بلد غريب بعيد عن الوطن والأهل. أما الآن فإنها تشعر أنها أقوى، وبرغم أنها لم تحدد وقتاً لقرارها، فقد قالت إنها تحتفظ بكل ملابسها، وذكّرت زوجها

مراراً بأنها ستعود إلى الحجاب، وأنه لابد سيؤمن به[22]. وتتناقض قصة صفية مع النظرة النمطية للرجال الذين يجبرون زوجاتهم على الحجاب.

كان الصراع بالنسبة لرانيا هو مع أمها فاطمة التي تأتي من خلفية علمانية، كما رأينا، وكانت لا تحب أن ترى ابنتها مرتدية الحجاب، أما أوجه اعتراضاها فهي أن رانيا صغيرة السن وغير متزوجة كما أنها على وشك الالتحاق بكلية الطب، وربما يكون الحجاب سبباً في ألا يأخذها أهل هذا التخصص مأخذ الجد، وربما لا تتزوج شخصاً محترماً بسبب الحجاب.

من الواضح أن اعتراضات فاطمة على ارتداء ابنتها الحجاب تنبع من نشأتها، كما ذكرنا آنفاً، وكذلك ترجع إلى حبها ابنتها ورغبتها في أن تنجح في حياتها المهنية. وعندما أخبرتها رانيا أنها تريد الالتزام بالحجاب، قالت فاطمة إن ذلك لم يسعدها لكنها ظنت أن رانيا لم تكن جادة فعلاً بخصوص هذا الأمر، وأن رانيا ستغير رأيها لصعوبة ارتداء الحجاب في كندا.

كانت فاطمة وزوجها يخشيان ألا تتمكن المحجبة لن تتمكن من التميز في مجالها، وألا يمكنها طرح الأسئلة، وكذلك كانا يفترضان أنها لا تستطيع أن تتحدث بثقة. وعلى الرغم مما في نفس فاطمة من الافتخار بابنتها لأنها أكثر تديناً منها، فقد كانت قلقة ألا تتزوج رانيا، وكل ما كانت تعرفه أن الحجاب ترتديه «الفلاحات» لا المتعلمات. وكانت تخشى أن تكون الأسرة التي تقبل امرأة محجبة أقل تعليماً مما سيسبب المشكلات لابنتها، كما كانت تخشى ألا تقبل عائلة الزوج عمل ابنتها بسهولة وألا تدعها تعيش في سعادة. وكانت تخشى أيضاً أن يتساءل الناس، إذا ارتدت الابنة الحجاب فلماذا لا ترتديه الأم أيضاً. وبرغم النكد الذي سببته قضية الحجاب في الأسرة؛ فقد كانت رانيا مصممة على قرار ارتدائه، فلم تجد الأم بداً من قبول الموقف كأنها تقول: «هذا قرارها، وقد كبرت بما يكفي لاتخاذ قرار مثل هذا».

2ـ تفسيرات تقليدية (أي متحيزة للذكور)

ألَّفت الباحثات غير المحجبات أغلب الدراسات عن حركة العودة للحجاب. وقد طعن كثيرات منهن في مصداقية مقولات النساء اللاتي قابلَتْهن في المقابلة الشخصية

بشأن فرض القرآن الحجاب على النساء. ومن وجهة نظر هؤلاء الباحثات أن القرآن لا يطلب سوى الاحتشام، وليس نوع الملابس التي يصفها الإسلاميون. وأن وضع دراساتهن في هذا الإطار يضر بالنساء اللاتي أجرين معهن المقابلات الشخصية بغرض كتابة مقالاتهن العلمية، لأن ذلك يقوم على افتراض أنهن أقدر على تفسير القرآن من النساء اللاتي يقابلنهن في المقابلات الشخصية. وهناك مدخل أفضل للتعامل مع اختلافات التفسير القرآني تقدمه دراسة عزة كرم للنسوية المصرية. فبرغم أنها لا تتفق مع تفسير الإسلاميات بفرض النص القرآني للحجاب، فإنها تحمل احتراماً عميقاً لمنهجهن إذ تقول: «كان ذلك موقفاً لا حل له، فقد كنت عاجزة، بوصفي مسلمة تربيت على قناعات إسلامية، عن إنكار شرعية قاعدتهن الإسلامية (أي القرآن) ولكني لا أستطيع أن أقبل التفسيرات التي يستخدمنها وما يتبعها من آثار اجتماعية»[23]. وتذكر عزة كرم أن فريقي المحجبات وغير المحجبات، كلاهما مقتنع بأن الطرف الآخر يضلله وعي زائف[24].

إن فكرة الوعي الزائف الذي تعاني منه المحجبات هي الأقوى في الغرب. فعندما بدأت ارتداء الحجاب في الجامعة قالت زميلة لصديقتي «ألا تعلم أنها مقهورة؟» مع ذلك فما من امرأة تختار الحجاب في هذه الأيام، لا سيما من نشأت في الغرب، إلا وتعلم المساجلات الدائرة بشأن أمر الحجاب داخل المجتمع المسلم وخارجه. فتاريخ الحجاب في العالم الإسلامي طويل، ولكن الجدل الثائر حوله جديد نسبياً، فقد أشعلته المواجهة الاستعمارية مع الغرب. ومن الشائع حالياً أن تجد النساء الأكبر سناً في الأسرة محجبات والأصغر سناً غير محجبات. أما في كندا فليس التحجب بالأمر السهل؛ إذ إن رأي المجتمع الأوسع فيه سلبي، كما ترتبط به عموماً خبرات تحرش وتمييز. فالنساء اللاتي أجريت معهن المقابلات الشخصية، لم يتخذن قرار التحجب والالتزام به يوماً بعد يوم دون تفكير متروٍ في أسباب التزامهن بالحجاب. وقد وجد الباحثون المتخصصون في حركة العودة للحجاب أن أسباب النساء في ذلك كثيرة ومختلفة، تبدأ من الاحتجاج السياسي إلى الأسباب الاقتصادية، حتى التدين

والورع (انظر الفصل الثالث) فليس من السهل الوصول إلى أحكام عامة، فبينما تجد أرلين ماكلويد في دراستها أن التدين لم يكن عاملاً رئيساً في ارتداء الحجاب، كان ذلك سبباً أساسياً في دراسة شريفة زهور[25] وبالتأكيد تجد دراستي أن الأسباب الدينية دافع قوي وراء قرار التحجب، أو لاعتقاد المرأة بوجوب الحجاب. ولا تدعو هذه النتيجة للدهشة؛ إذ إن كل من قابلتهن في المقابلات الشخصية يؤدين الصلوات الخمس بانتظام، باستثناء فاطمة. وقد فكرن جميعاً في تفسيرات مختلفة للقرآن، واخترن التفسيرات الأقرب إلى عقولهن. وكلهن يعتقدن أن الآية القرآنية التي تأمر النساء بتغطية شعورهن صريحة الدلالة. وتعبر «نادية» عن موقف هؤلاء النساء تعبيراً جيداً إذ تقول: «لابد أن أقر أنني عندما قرأت آية تغطية الرأس بالخمار وضربه على الجيب [النور: 30 – 31] أيقنت صراحة أن غطاء الرأس حقيقة، وأنه جزء من الزيّ الإسلامي». كما أشارت نساء العينة إلى أحاديث نبوية عديدة عن الحجاب يعددنها مقنعة، ويخصصن منها الحديث الذي يذكر أنه عند بلوغ المرأة المحيض لا يجب أن يظهر منها إلا الوجه والكفان[26].

حتى النساء اللاتي لا يرتدين الحجاب بصورة دائمة، ولكنهن يرغبن في ذلك، كلهن مقتنعات بوضوح دلالة الآية. قالت خديجة أنها تفكر في الحجاب، وتتمنى أن تلتزم به يوماً ما، وتعلل ذلك بقولها: «إنني أعتقد أنه ذكر في القرآن، مثل الآية التي تقول إن غطاء الرأس ينبغي أن يغطي الصدر أيضاً؛ لا شك أن غطاء الرأس مذكور في الآية». كانت خديجة تعلم أن بعض الأكاديميين يقول بأن الآية لم تذكر غطاء الرأس، ولكنها ترد قائلة: «ليس هذا صحيحاً، وليس هذا ما أؤمن به... وهناك حديث نبوي يقول عندما تبلغ المرأة المحيض لا ينبغي أن يرى منها سوى الوجه والكفين، فما معنى ذلك؟... حتى لو لم أركز كثيراً على هذا الحديث، فالقرآن صريح. هي آية واحدة، ولكن كل الآيات على القدر نفسه من الأهمية».

لا شك أن نساءً أخريات مثل عزة كرم وليلى حسيني وشريفة زهور يعتمدن في نتائجهن على الآيات نفسها، وهذا أمر مفهوم. فكل واحدة منا ينبغي أن تكون قادرة

على الوصول بنفسها إلى قناعتها بشأن قضية الحجاب. والأساس أن كل واحدة منا لابد أن تحظى بالاحترام، لا أن ترمى بأن اختيارها كان عن غفلة، أو أنها تعرضت لغسيل مخ، أو أن وعياً يضللها، وما إلى ذلك.

إذا آمن النساء بأن التحجب فرض ديني، فهل يرين جوانب سلبية في التحجب، كما يرى بقية الغرب ذلك في الحجاب؟ عندما سئلت النساء عن ذلك، تضمنت إجابتهن إشارات إلى ردود أفعال الآخرين نحوهن «وكأنكِ من الفضاء الخارجي، أو نحو ذلك» (كلام ساديا)، أو «حجر عثرة في طريق التفاعل مع الآخرين» (كلام رانيا)، أو «يقلل فرص التريض بسبب الحر في الصيف، لأن المرافق الخدمية في كندا مختلطة ولا تستطيع المسلمات المشاركة دون تخصيص ساعات للنساء فقط، وكذلك عدم وضع مساحيق التجميل» (كلام إليزابيث)، أو صعوبة ارتدائه لمدة 12 ساعة مدة العمل» (كلام نادية).

لم تغير أي من هذه العقبات الاتجاه الإيجابي الذي تتخذه هؤلاء النسوة نحو الحجاب. فقد شعرن أن مزايا ارتداء الحجاب تفوق كل المساوئ، وبذلك وجدن ارتداءه مقبولاً برغم هذه المساوئ. وكما قالت صديقتي هدى عندما ذكرت لها ذلك، «عندما أصوم أشعر بالجوع، ولكن ذلك لا يمنعني من الصيام». قالت ريم إنها تدرك المشكلات التي حلها الحجاب إلى درجة أنها تعتقد أنه لو (لم يكن فرضاً دينياً) وكان مجرد مظهر ثقافي؛ «فهو أمر يستحق أن يتبع».

ظهرت ثلاث مزايا رئيسة لارتداء الحجاب؛ فكانت موضوعات للحديث في مقابلاتي الشخصية: الحجاب يحسّن العلاقات بين الذكور والإناث، الحجاب يفيد المجتمع، الحجاب يحمي النساء.

3ـ مزايا الحجاب

<u>1-3 علاقات الذكور بالإناث</u>

يندهش الغربيون عندما يرون النساء المسلمات يغطين أجسادهن أكثر مما يفعل الرجال المسلمون، ويرون في ذلك دليلاً على دونية مكانة المرأة. والحقيقة أن

الشرع الإسلامي يضع شروطاً للباس المسلم، ذكراً كان أو أنثى، برغم اختلاف هذه الشروط بينهما؛ فالرجل يغطي ما بين السرة والركبة، ويرتدي في هذه المنطقة ملابس فضفاضة لا تشف (فالجينز الضيق غير مسموح به) وملابس المرأة أكثر ستراً فهي لا تكشف إلا وجهها وكفيها[27]. وباستثناء فاطمة ونهى، كان كل من قابلتهن شخصياً من النساء يعتقدن أن ذلك مرجعه اختلافات جوهرية بين الرجال والنساء، فهن يؤمنّ بفكرة أن الرجال أقرب إلى الاستثارة الجنسية بالنظر من النساء؛ وهنا يقف الحجاب حاجزاً أمام نظرة الرجال. ولا يعني التحجب أن الانجذاب الجنسي خطأ في ذاته، ولكن لا ينبغي التعبير عنه إلا بين الزوجين في خلوة البيت. وإن إتاحة فضاء عام يخلو من التوترات الجنسية من شأنه أن يتيح مكاناً يتعايش فيه الناس، رجالاً ونساء في هدوء وانسجام، فيتفاعلون مع بعضهم، ويؤدون أعمالهم، ويبنون حضارة سليمة. وهكذا فإن من قابلت من النساء يرين في الحجاب منفعة للمجتمع وحماية للنساء ومصدراً للسلام النفسي.

عبّرت رانيا عن هذا تعبيراً جيداً: «سأشعر بارتياح أكبر إذا علمت أن زوجي... يعمل في مكان، فيه المسلمات العاملات محجبات، سأكون أكثر اطمئناناً بهذا الوضع من أن يعمل زوجي في أماكن العمل المعتادة ـ التي تعرفينها... أشعر أن...زوجي لن يجد بعض الأمور التي قد تشتت انتباهه أو تغريه».

بدأت رانيا ارتداء الحجاب عندما كانت في الثامنة عشرة وتقول: إنها لاحظت اختلافاً في طريقة تعامل الرجال معها بعد ارتدائه، كانوا أكثر احتراماً، فلم يحاولوا مغازلتها أو توجيه تعليقات خارجة. ويوافق نساء عديدات على ذلك، لا سيما حديثات الإسلام منهن اللاتي تحجبن في العشرينيات من العمر، فيقلن إنهن شعرن باحترام أكبر في تعامل الرجال معهن بعد الحجاب، وإن تعامل الرجال معهن كان باعتبارهن «بشراً» لا «كائنات جنسية»، وقد سمح لهن ذلك بالتركيز على ما في أيديهن من أعمال، ووفر عليهن ذلك التشتت الذي تسببه ضرورة مواجهة تحرش الرجال.

تعمل «رنيم» في صناعة الحاسب الآلي وكانت في أواسط العشرينيات من العمر عندما اعتنقت الإسلام، وبدأت تلتزم بارتداء الحجاب؛ ولأنها كانت أغلب الوقت

تعمل مع الرجال فقط، فقد وجدت أنها محط اهتمام زائد منهم وكانت تبحث عن حل لهذا. وتعتقد رنيم أنها وصلت إلى رأيها الإسلامي في الحجاب قبل أن تسمع بالإسلام؛ فكانت قد قررت ارتداء ملابس طويلة محافظة في مكان عملها، وقررت أن تقص شعرها، وأن «تبدو مثل سيدة محترفة». وكانت النتيجة «مدهشة وسارة»، فقد اختلف الاهتمام الذي تتلقاه، وبدا أن هؤلاء الرجال بدؤوا «يحدثونها بوصفها إنساناً» وليست كائناً جنسياً.

كانت «نور» ترى في الحجاب «وسيلة لمنع التحرش الجنسي»، و«إشارة عون» من الله للنساء. وتفهم نور الاختلافات بين ملابس الذكور وملابس الإناث على نحو يختلف عن فهم أغلب النساء اللاتي قابلتهن شخصياً:

كل المسلمات مأمورات بارتداء [الحجاب] بصرف النظر عن جمالهن، ومن ثم فهو لا يرتبط بالجمال... فقد كان الرجال في المجتمعات الإسلامية يغطون شعورهم، وكان ذلك دليلاً على التواضع والاعتدال؛ لكن هذا لم يكن... فرضاً،... فقد كانوا يفعلونه من باب السنة الفعلية... يرمزون بذلك [إلى كونهم] مسلمين... فإذا كنتِ امرأة وقبلت هذا الدين، لابد أن تقبلي [الحجاب] فهو جزء لا يتجزأ من مجمل هذا الدين.

أما «نهى» وهي من الطائفة الإسماعيلية فلم تكن ترى للحجاب أي صلة بعلاقات الذكور بالإناث. وتقول إن أي رجل يمكن أن «يستثار ولو كانت المرأة ترتدي ذلك الشيء [الحجاب]». مع ذلك فقد لاحظت اختلافاً كبيراً في سلوك أصدقائها من الرجال نحوها ونحو صديقاتها المحجبات؛ إذ كانوا أكثر تحفظاً مع البنات المسلمات السنيات اللاتي يرتدين الحجاب، وكانوا أكثر تحرراً وانفتاحاً معها.

كانت نهى تستنكر هذه المعاملة التي تنطوي على تمييز ضد صديقاتها وتقول إن الرجال ليسوا منصفين بتعاملهم المتحفظ هذا تجاه صديقاتها المحجبات «فهن ودودات مثلي تماماً». وهي ترى أن اهتمام الرجال أحياناً ما يكون غير مرغوب فيه، لكنها أحياناً تقول: «ليس عليكِ سوى أن تقولي لهم بعض الكلمات اللطيفة وسيدعونك

في سلام، ولو أنهم سيعتبرونكِ فظة بعد ذلك، لكنهم سيتركونكِ وشأنك». قلت لنهى إن ثمة نظرة أخرى ترى الحجاب حماية للنساء من الاهتمام الذكوري غير المرغوب فيه، فقالت إنها فكرت جدياً في ارتداء الحجاب لهذا السبب، ولكنها تشعر أن اهتمام الرجال يتوقف أيضاً على طريقة تعاملها معهم، فإذا كانت أكثر تحفظاً سيعاملونها باحترام أكبر بغض النظر عن ملابسها. لكن نهى رأت في الناس نوعاً من النفاق؛ إذ يعاملونكِ باحترام لمجرد أنك ترتدين ملابس أطول. فعندما بدأت ترتدي تنورة طويلة للمسجد بدلاً من التنورة القصيرة «حدث أن تغيرت سمعتها تغيراً مفاجئاً من كونها «منحلة» إلى فتاة ممتازة». وقد وجدت نهى رد الفعل ذلك غريباً جداً، فهي لا تزال الشخص نفسه في داخلها، كما تقول.

2-3 الحجاب منفعة للمجتمع

تعي المسلمات التأكيد النسوي على أن النساء اللاتي يغطين أجسادهن ليساعدوا الرجال على عدم التشتت الذهني، يقبلن فكرة ذكورية تخفي وراءها تضحية نسائية بالذات من أجل الرجال. ولكن النساء اللاتي قابلتهن في المقابلات الشخصية لم يتفقن مع هذا التخريج، فهن يعتقدن أن النساء شقائق الرجال وأخواتهم في الدين، ولم يجدن غضاضة في أن تساعد النساء الرجال على أن يرتقوا بسلوكهم الديني. كما يعتقدن أن المجتمع يستفيد من خفض التوتر الجنسي بين الرجال والنساء في الفضاء العام. وكما تقول زينب: «استُغلّت النساء كثيراً، ويتصرف الرجال بحماقة بسبب النساء، حتى أنني أؤمن صدقاً أن من الخير للرجال أن ترتدي النساء الحجاب. لماذا نشجع الغيرة أو الحسد أو ما شابه ذلك؟ لماذا نزكي المشاعر السلبية؟

كان رأي رانيا أن الحجاب منفعة للرجال والنساء جميعاً. فالحجاب يحمي النساء من الاهتمام الذكوري «غير المرغوب»، والحجاب يعين الأزواج على عدم الانجذاب لنساء غير زوجاتهم، وتساءلت: «إذا أردنا مجتمعاً سليماً، عادلاً، فلماذا لا يعين بعضنا بعضا؟ لماذا لا أفعل شيئاً يجعل أمر الحياة أسهل على الجنس الآخر؟» وتواصل رانيا حديثها قائلة: «اعتقد أننا بحاجة للاهتمام بكل فرد في مجتمعنا، و... ربما تغوي الرجال بعض الصفات البدنية برغم أنهم لا يسعون لذلك... والأصوب

أن نسعى لإعانة بعضنا البعض، وألا نكتفي بالقول: «هاهم كما تعرفن عاجزون عن التحكم بأنفسهم».

وتتفق نادية مع فكرة أن الحجاب ينفع المجتمع، إذ يعين النساء والرجال. وهي تؤمن بأن الحجاب يحمي النساء من محاولات الرجال التقرب منهن، كما أنه يحمي الرجال من الشعور «بالشهوة». «قللت» نادية «من أهمية» هذا الجانب من الحجاب، [فبرغم] أننا بالفعل نحمي أخوتنا [في الدين] بارتداء الحجاب، فإن «المجتمع الكندي يشعر أننا بهذا نحمل أنفسنا ثقل المسؤولية، وأظن أننا نفعل هذا بدرجة ما، ولكني أضع ذلك في إطاره المتكامل بوصفه جزءاً من [هويتي]... كوني مسلمة، أو ألتزم بتعاليم الإسلام، ... وهو لذلك لا يمثل مشقة علي، لكني أعتقد أن وجهة النظر النسوية بأننا نُقْهر من أجل إنقاذ الرجال حاضرة هنا»*.

قالت نادية على سبيل الدعابة، إنها عندما كان الحجاب «يضايقها» كانت تقول في نفسها إن الرجال لا يقدرون التضحية التي نبذلها من أجلهم، ولكن نادية قد تتفق مع نور في أن «الشهوة الذكورية ليست التفسير الوافي لارتداء الحجاب، فهي تقر بأن كثيراً من الفتيات، وهي بينهن لا يعددن أنفسهن جميلات. وليس من المحتمل أن يشتتن اهتمام الرجال.

بدأت حليمة ارتداء الحجاب وهي في الثالثة والعشرين من عمرها. وهي تقول إن «الحجاب هو من أجل الرجال أكثر من النساء»، وتعتقد أن المجتمع يكون أصح عندما يتم التحكم في الرغبات الجنسية على نحو أقوى، وليس كما يحدث حالياً في كندا، حيث الجنس ـ كما تعتقد ـ في كل مكان، في التلفاز والمراكز التجارية وغيرها. «في هذا المجتمع الأمر أصعب على أزواجنا [منا]. فأينما ينظرون يرون نساء غير محتشمات، وهذا... اختبار [من الله] لهم». وفي رأيها، إذا احتشمت جميع النساء، سيكون الأمر أسهل على الرجال؛ إذ لن يضطروا إلى غض أبصارهم، وبذل الجهد في ضبط النفس. وأضافت زينب أن في الحجاب منفعة للمجتمع، لأنه سيجعل عملية إظهار الثروات (مثل المجوهرات) أصعب. وهي تعتقد أن الحجاب «يقلل من المشاعر السلبية من قبل من هم أقل منا حظاً، ففيه نوع من المساواة بين الجميع».

* أي في الربط بين الحجاب وتحمل المسؤولية عن الآخرين. (المترجم)

3-3 الحجاب يحمي النساء

إن أحد الموضوعات البارزة في كلام النساء، الذي أوردته في الفقرة السابقة، أن معظم المتحدثات ممن أجريت معهن المقابلة الشخصية يرين في الحجاب شكلاً من أشكال الحماية ـ للمجتمع رجالاً ونساء، وأكدت جميع النساء تقريباً على أنه حماية للنساء. لاحظت حليمة وجود اختلاف بين الطريقة التي كان يعاملها بها غير المسلمين من الرجال قبل أن تسلم وترتدي الحجاب وبعدها. فهم يعتذرون إذا تلفظوا أمامها بكلامٍ نابٍ، وكانوا أكثر تحفظاً في مخاطبتها. كما أشارت إلى أن تعاملات الذكور مع الإناث لا يحددها اللباس فقط؛ فليس الحجاب مجرد لباس، بل نمط من السلوك المتحفظ، وتقول حليمة: «عندما تكوني محجبة، لن تكوني شخصية عابثة مع الجنس الآخر». وتقر حليمة بأن المرأة التي ترتدي تنورة قصيرة جداً تجتذب اهتماماً أكبر في الشارع من المرأة التي ترتدي الحجاب، ولكن الحجاب ليس «حماية من الاغتصاب لأن الاغتصاب لا يتعلق بالجمال بل بالقوة».

ولا تتفق ياسمين على القول بأن الرجل يمكن أن يغتصب امرأة ولو كانت محجبة؛ فهي تعتقد أن الحجاب حماية حقيقية للنساء حتى من الاغتصاب. وقالت إن الرجل المغتصب رجل «مريض»، ولكن منظر المرأة المكشوفة يشجعه، ويجعل الأمر سهلاً عليه. وأشارت إلى أنه في المجتمع الذي تغطي نساؤه أجسامهن، هناك رجال يتحرشون بالنساء، وهذا قدر كافٍ من السوء. ولكن عدم تحجب المرأة قد يجعل الأمور أسوأ كثيراً، حسب حالة الرجل الذهنية.

وترى إليزابيث أن الحجاب لابد أن يحمي المرأة من التحرش الجنسي ومن الاغتصاب، وأشارت إلى الآية القرآنية التي تقول إن الحجاب يحمي النساء من الأذى «فَلا يُؤْذَيْنَ» (الأحزاب: 59). وترى إليزابيث أن هذه الآية منطبقة على واقعها، فقد وجدت أنها عندما تكون بالحجاب «لا ينظر إليك الرجال... وإن نظروا فهي نظرة سريعة، يصرفون بعدها نظرهم عنكِ، لأنهم إن كانوا مسلمين فلن ينظروا إليكِ من البداية، وإن كانوا غير ذلك سيقولون في أنفسهم «من هذه المرأة؟» ولن يهتموا بالنظر إليكِ». وتعتقد إليزابيث أن الرجال غير مضطرين إلى التستر بالقدر الواجب على

النساء «لأننا [أي النساء] حتى لو نظرنا إليهم [أي الرجال] بشهوة، أو نحوها، وهو ما لا ينبغي أن نفعل، فإننا لا نستطيع أن نلحق بهم أي أذى».

تؤكد إيلين فكرة الحماية في فهمها للحجاب: «ملبسي لا يكتمل دون غطاء رأسي، أي حجابي». وهكذا لم تعد تعاني أصوات الصفير وكلام المعاكسات في الشارع، بخلاف صديقتها غير المسلمة التي ترتدي التنورة القصيرة جداً، وتضع مساحيق التجميل. وتعتبر إيلين الحجاب «نعمة»، وهي تشعر «براحة حقيقية عند ارتدائه». وعندما فكّرَتْ في سبب ارتدائها إياه أتتها الإجابة: «سهلة وطبيعية، إذا نظرت في الأمر، ...حسناً أنا أفعل ذلك لأرضي الله».

أماساديا، ابنة ياسمين، وهي في الخامسة عشرة، فقد بدأت ارتداء الحجاب في المدرسة الإسلامية في سن الحادية عشر أو الثانية عشر. وقد أوضحت أشياء أخرى عندما أكدت أن الحجاب حماية لها «يحميك من كل سوء في الخارج» مثل عدم الذهاب إلى الأفلام السينمائية غير المناسبة أو الاختلاط بأناس غير مقبولين أو مثل متعاطي المخدرات. ترى ساديا بوضوح أن حجابها يحميها من أثر الأقران السلبي الموجود في المدرسة الثانوية والمتمثل في تعاطي المخدرات وممارسة الجنس، وقد تأكد رأيها عندما درست في مدرسة ثانوية إسلامية للبنات فقط لمدة عام، فقد لاحظت أن الفتيات غير المحجبات اللاتي يرسلن إلى المدرسة لمشكلات لديهن ، «يأتي بهن أولياء أمورهن إلى المدرسة حتى ينصلح حالهن أو لشيء من هذا القبيل، وكنت أراهن يرتدين أنواعاً من الملابس المثيرة». ولكنها رأتهن كذلك يتحدثن مع الفتيان، فعرفت أنهن لسن قويات بالمعنى الحقيقي. جاءت إلى المدرسة «فتاة في الخامسة عشرة بعد عملية إجهاض، واكتشفت أمها الأمر وأرسلتها إلى هذه المدرسة، ربما تتعلم شيئاً». ولكن ساديا تشك في ذلك لأن الفتاة كانت «تتفاخر» بعملية إجهاضها.

وعلى ذلك، فالنساء في عينة الدراسة يؤمنّ بقوة بأن الحجاب منفعة للمجتمع، وأنه «ينظف» جو التعامل بين الذكور والإناث؛ إذ يقل تحرش الرجال بالنساء. وتشعر النساء أنهن يعاملن بوصفهن بشراً، ولسن «كائنات جنسية» كما أن المشاعر السلبية مثل الحسد والغيرة ستقل في المجتمع الذي تتحجب فيه النساء، لأنهن لن يشعرن بالغيرة

من أن ينظر أزواجهن أو يرغبوا في نساء أخريات، ولن يشعرن بالغيرة من ثراء بعضهن وملابس التصميمات الخاصة. كما ترى نساء العينة أن الحجاب يعين الرجال على أن يصيروا أكثر هدوءاً، لعدم تعرضهم للإغراء المستمر من نساء غير زوجاتهم.

4ـ المساواة

تقول نسويات كثيرات إن في الاعتقاد بوجود اختلافات بين الذكر والأنثى إذعاناً للقهر من جانب النساء، لأن هذه الاختلافات هي التي تستخدم لمنع النساء من تحقيق إمكاناتهن. ولا تتفق النساء اللاتي قابلتهن على أن الاعتقاد بوجود اختلاف بين الذكر والأنثى يعني الاعتقاد بعدم التساوي بين الرجل والمرأة؛ وكن جميعاً مقتنعات بأن الرجال والنساء في الإسلام سواء. وترى نساء العينة أن التعريف الرئيس للمساواة يرتبط بمكانة كل البشر عند الله. وقلن إن الجميع في الإسلام سواء عند الله، وأنهم لا يتفاضلون إلا بالتقوى. ويقول القرآن صراحة إن الرجال والنساء عند الله سواء؛ فقد خلق الرجال والنساء من نفس واحدة، وكلاهما خليفة الله في الأرض (البقرة: 30)، وكلٌ مسؤول عن عمله. كما أشار نساء العينة إلى مثل الآية التالية لإثبات ما يقلن: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ ابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾. (الأحزاب: 35).

قالت نساء عينتي بعدم وجود تمييز بين الذكر والأنثى، في أهم أمور الدين الإسلامي، فعلى المرأة أن تنطق بالشهادتين وتؤدي الصلوات الخمس وتدفع الزكاة وتحج البيت مرة في العمر، إذا كانت مستطيعة. وتصوم رمضان. وكذلك ليس من تمييز بين الذكر والأنثى في ثواب الله وعقابه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: 124)، هذا هو فهم نساء العينة للمساواة التي يتمتع بها النساء، ومثل هذه الآيات، في رأيهن، تتضمنها. تقول ياسمين إن هذه الحقيقة «طمأنتها» لأنها أحست أن الله لا يفضل أحداً على أحد «فالرجال والنساء يعامل بعضهم بعضاً باحترام كأخوة وأخوات».

obeikandl.com

انتهت النساء إلى أن الرجال والنساء في الإسلام سواء، ولكنهما مختلفان. فلهما طبيعتان مختلفتان، وأدوار يكمل بعضها بعضاً في الدنيا. وقلن إن النساء أقدر على التربية من الرجال، وهن أنسب لرعاية الأطفال. ويعتقد هؤلاء النساء أن دور المرأة في الحمل والولادة يجعل مسؤولية الإنفاق على الرجال. ولكنهن لا يعتقدن أن اختلاف الذكر والأنثى يستتبع أن يكون الرجال أكثر عقلانية أو ذكاء من النساء، أو أن طبيعة الحمل تعني أنها لا تستطيع أن تكون ضمن القوى العاملة، أو أن معنى وقوع مسؤولية الإنفاق على الرجل تعني عدم مشاركته في أعمال المنزل. وقد أشارت النساء إلى سنة رسول الله ﷺ، الذي كان يخيط ثوبه ويقم البيت ويسعى في حاجة أهله[28]. أما أزواج نساء العينة (وتسع منهن متزوجات) فقد كانوا ـ على اختلاف في الدرجة ـ يقومون بالطهي وتنظيف البيت وغسيل الملابس ورعاية الأطفال (مع العلم بأن أربعة من النساء يعملن خارج البيت، واثنتان تدرسان داخل المنزل، وواحدة كاتبة حرة). إن مقولة وجود اختلافات وراثية بين الرجال والنساء، مصدر للفهم المتضارب لمركز المرأة في الإسلام، بين من يقولون إن الإسلام يخضع النساء ونساء عينتي. تقول نساء العينة إن المساواة لا تعني التطابق، ولذلك وجهن النقد للافتراضات الليبرالية التي تقول: إنه إذا لم يقم الرجال والنساء بعمل شيء ما بالطريقة نفسها، فلا مساواة.

بطبيعة الحال لم يكن ما أوجزته آنفاً إلا المثال النظري للعلاقة المتساوية بين الرجال والنساء في الإسلام. ولا شك أن المسلمين لا يتفقون جميعاً على فهم واحد للمساواة. وترى نساء العينة أن من لا يؤمن بهذه المساواة مخطئ في فهم الإسلام. وقالت كثيرات من نساء العينة إن الرجال والنساء في الإسلام سواء نظرياً، ولكن التطبيق شيء آخر. تتحدث صفية عن بلدها، وتبرز الاختلاف بين ما يوصي به القرآن وما يفعله المسلمون، وتؤكد أن ذلك سببه التربية أو النشأة. ففي بلدها يفضلون الأولاد على البنات ويقام احتفال كبير لميلاد الأولاد، وربما لا يذكر الأمر إذا كان المولود أنثى. ولكن لحسن لحظ يتغير هذا الأمر مع تلقى البنات نوع التعليم نفسه الذي يتلقاه الأولاد، والآن «يتحدى» جيل الشباب «هذه الأفكار العتيقة».

توافق ياسمين على ذلك، وترى أن «مصيبة الإسلام هذه الأيام هي أن الناس يأخذون تفسير الإسلام من «أفواه» المسلمين، وليس من [المصدر]، «القرآن». وتقول: «حتى سلوك المسلمين لا يمثل الإسلام، لأن سلوكهم، لسوء الحظ، بالغ السوء، ويعملون خلاف الدين الإسلامي، ويدّعون أن هذا هو الإسلام». وتضيف أنه إذا التزم المسلمون الشرع الإسلامي، ستجد النساء معاملة منصفة، ولكنهم «لو فرضوا... أهواءهم أو التقاليد [على الشرع] لن يكون هناك عدل... إذا بدلوا ما [قاله] الله أو فسروه تفسيراً خاطئاً، ربما تضررت النساء من جراء ذلك». وهنا تشير ياسمين إلى معلومة اطلعت عليها حديثاً، وهي أن في تاريخ بلدها لم يكن مسموحاً للنساء بدخول الجامعة. لم تكن تعلم أن الجيل السابق على جيل أمها كان يمنع من دخول الجامعة: «يدعون أنهم مسلمون وهم يعملون ضد تعاليم الإسلام [يقول الإسلام إن النساء] ينبغي أن يتعلمن مثل الرجال... وحتى ...حديث الرسول للرجال الذي يقول: «... اعدلوا بين أولادكم»، كان لأن النساء كن يعاملن معاملة مختلفة، وقد بشر الرسول «بالجنة» الرجل الذي يعامل الابنة الواحدة أو الاثنتين أو الثلاثة كما يعامل الولد*. وختمت حديثها في هذا الموضوع بقولها: «لا أدري ربما كانت هذه [هي] طبيعة الناس، أن يكونوا ضد النساء».

5ـ الحرية؟

يرى كثير من المراقبين أن آراء النساء عن علاقات الذكور بالإناث وعن المجتمع، تقبل التصور الذكوري لعلاقات الذكور بالإناث، ومكان المرأة في المجتمع. فترى كل من بات ميول وديان بارثيل أن قرار التحجب يقدم للنساء «حلاً عملياً لمشكلة تحرش الرجال بهن. فهو يسمح لهن بعبور الحدود دون تلقي عقوبة المقتحم»، مع ذلك تقبل بات ميول وديان بارثيل رأي فاطمة المرنيسي في معنى الحجاب داخل المجتمع الإسلامي: إن للنساء قوة بسبب جاذبيتهن الجنسية «فهذه الطبيعة الجنسية تصور بأنها مشتِّتة ولا يمكن مقاومتها». ولأنها مصدر للفساد، وخطر على النظام الاجتماعي؛ فلابد من

* لعلها تشير إلى حديث: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن واتقى الله فيهن دخل الجنة.» [ضعّفه الألباني] (المترجم).

السيطرة عليها، ولابد من تقييد النساء في فضاء منفصل، بعيداً عن عالم الرجال». وبنص كلام فاطمة المرنيسي: «يمكن تأويل الحجاب بأنه رمز يكشف تصوراً جمعياً متخيلاً للمجتمع الإسلامي: غرضه إخفاء النساء، واستبعادهن من الحياة الاجتماعية المشتركة، وإيداعهن عالماً يسهل السيطرة عليه: أي البيت، وكذلك لمنعهن من التحرك بحرية، ومن ثم يمكن إبراز عدم شرعية وجودهن في عالم الذكور، وذلك باستخدام قناع»[30]. القضية هنا تتعلق باحترام الإسلام للنساء وحرية النساء.

رأينا في القسم 3 أن النساء تلقَّين سؤالاً عن سبب تحجبهن، فأشارت كثيرات منهن إلى استبعاد الجذب الجنسي الأنثوي من الفضاء العام ـ ومن هذه الزاوية يمكن أن يتلاقى رأيهن مع تأويل فاطمة المرنيسي للحجاب، بوصفه أداة لتغطية أو إخفاء أو حجب الجاذبية الجنسية الأنثوية عن الفضاء العام. مع ذلك فنساء العينة يختلفن اختلافاً شديداً مع باقي استنتاجات فاطمة المرنيسي بشأن دلالات التحجب. فهن لا يعتقدن أن الحجاب علامة على عدم شرعية وجود [النساء] في عالم الذكور، «ولا أن الحجاب أداة تمنعهن من التحرك بحرية خارج البيت. فقد كان الحجاب بالنسبة لنساء العينة أداة تيسير لتحرك المرأة خارج البيت. وقد عبرت نادية عن هذا الشعور جيداً عندما قالت إن المرأة عندما تلتزم الزيّ الإسلامي، فلا سبب يجعلها تبقى في البيت لأن جوانب الجذب في جسدها وما قد يجذب من اهتمام قد تم استبعادها. ويتيح هذا للمرأة حرية الخروج إلى المجتمع والمشاركة فيه حسب قدراتها لا حسب مظهرها.

وتتفق ياسمين، التي ارتدت النقاب في كندا لمدة ستة أشهر، مع نادية على ان الحجاب يعمل على عكس ما تقول فاطمة المرنيسي، فهو يسهل الخروج، لأنك لك في البيت حرية... أن ترتدي ما تشائين، وتلبسين الحجاب عند الخروج من البيت، إذاً الحجاب للخارج وليس للداخل، فهو وسيلة تستخدمها المرأة للتعامل مع المجتمع.

لم يكتف نساء العينة برفض تأويل الحجاب بوصفه رمزاً لمنع النساء من الخروج، إذ عبرن عن ضيقهن، بل غضبهن ممن يطرحون هذه الأقوال، أمثال فاطمة المرنيسي ومثيلاتها. فأكدت زينب أنه لا الكتاب ولا السنة يضيِّقان على النساء في الخروج من البيت: «أعتقد أن من ... السخف... توجيه سؤال كهذا لي[31]، إنه بلا معنى، بل

إنه تعليق سمج، ومثل هذه التعليقات والأسئلة تستفزني: لماذا [يفترض] أن الحجاب ...يقيد حرية المرأة؟»

كان نساء عينتي يعلمن أن من مفسري القرآن والسنة المسلمين من يقول إن المرأة لا ينبغي أن تخرج من بيتها إلا لضرورة، وثمة مؤلفون يؤيدون (بحماس) تفسير المرنيسي لرأي الإسلام في المرأة والمجتمع(32). مع ذلك يرى النساء اللاتي قابلتهن مقابلة شخصية أن هؤلاء المؤلفين المسلمين مخطئون بشأن دور المرأة، ويزعجهن أن تحتج باحثات مثل فاطمة المرنيسي برأي أحدهم (السيئ) في الإسلام، ويغفلن علماء آخرين(لهم آراء إيجابية بشأن النساء). تقول إيمان إنها «تشعر بالغضب الشديد عندما [تسمع] ذلك [أي آراء مثل آراء فاطمة المرنيسي]». وتستنتج إيمان أن تكون فاطمة المرنيسي قد أسست رأيها على مقولات مؤلفين مسلمين وتفسيرات للإسلام تقول فعلاً إن النساء لا ينبغي أن يخرجن كثيراً من بيوتهن. وأشارت إلى المودودي خاصة قائلة: «يقول المودودي هذا، أي إن هذا رأيه بوصفه عالماً... ولكن لا ينبغي اعتبار ما يقوله على نفس القدر من أهمية ما يقوله القرآن، ولا يشير القرآن لهذا... وأنا أرفض ما فعله [المودودي] وما قاله... لأنه...يعطل إمكانات النساء.» وتبرز إيمان مدى خطورة أن «يأخذ الرجل الذي يريد إخضاع زوجته هذا الكلام ويسعى لإقناعها به».

ترى نساء العينة أن مقولة «الحجاب يعني ألا تخرج المرأة من البيت» تخالف السنة. ففي حياة الرسول كانت المرأة تؤدي دوراً نشطاً في المجتمع، في التجارة وفي الحروب وفي العلم وغير ذلك. وفي هذه النقطة تتحدى نظرة نساء عيّنتي التأويلات النسوية للحجاب بأنه رمز للخضوع، وكذلك بعض التفسيرات الإسلامية التي تفرض قيوداً صارمة على خروج المرأة من البيت.

لا تعِدُّ النساء اللاتي قابلتهن شخصياً الحجاب قيداً لحرياتهن. ولكنهن عبّرن أكثر من مرة عن مشاعر مختلطة، بشأن قدر الحرية التي يتمتعن بها، بالمقارنة بصديقاتهن الكنديات غير المسلمات. تنوعت إجابتهن في هذا الشأن تنوعاً كبيراً حسب تعريف الحرية المطروح. فإذا تم تعريف الحرية بأنها حرية التفكير أو التحرر من الأشياء، أو حرية الحركة، قالت نساء كثيرات إنهن يتمتعن بالقدر نفسه من

الحرية إن لم يكن أكثر مما تتمتع به الكنديات غير المسلمات. أما عندما عرفت الحرية لدى عدد قليل من نساء العينة بأنها الحركة المادية، قلن إنهن يشعرن بحرية أقل من غير المسلمات، ولكن هذا الشعور لم يكن في رأيهن نتيجة ارتداء الحجاب، بل نتيجة عوامل أخرى تتعلق بطبيعة الحياة المختلطة بين الجنسين في كندا.

كان موقف نادية من قضية الحرية متأرجحاً، يختلف حسب تعريف الحرية. فالحجاب لا شك يفرض قيوداً على الأنشطة، على الرياضة الخارجية مثل السباحة، وهو كذلك يمنع المرأة من الدخول إلى أماكن ومهن غير إسلامية. وتوافق نادية على إمكانية تعريف ذلك «بالحرية المقيدة»، ولكنها من جانب آخر «تكسب» من وراء ذلك لأنها، بوصفها مسلمة «تفضل أن يرفضها الكنديون على أن تفعل هذه الأشياء».

ترى حليمة أن المسلمات «أقل حرية»، بمعنى ما من الكنديات غير المسلمات «اللاتي لديهن حرية عمل أي شيء»، ولكن الدين الإسلامي نفسه حرية. وتوضح ذلك بأن المسلمة تؤمن بأن حسابها أمام الله، وهذا هو ما يقيد أفعالها. فإذا كان هذا هو ما يجعل المسلمة تراقب سلوكها أكثر من غيرها، فالإسلام يجعلها تعيش داخل حدود سليمة، مما يرتقي بالمجتمع ويشعر أفراده بحرية أفضل. ولكن حليمة كانت متأرجحة بشأن قضية الحرية، لأنها ترى أن الحياة في كندا تجعل المسلمات «يشعرن بالظلم»، ولكنها لا ترى أن الإسلام هو المسؤول، بل إن هناك عدم تطابق بين حاجات المرأة المسلمة وبنية المجتمع الكندي.

تعبّر حليمة بذلك عن إحدى نتائج دراسات قامت بها باحثات أخريات عن حياة المسلمات في الغرب. فالافتراضات الأساسية هي أن الحياة في الغرب «بطبيعتها أكثر حرية، أو بالحد الأدنى أقل قهراً بالنسبة للنساء من الحياة في دول العالم النامي أو الثالث»[33]. ولكن أحياناً ما تكون الحياة النسائية هنا أكثر تقييداً من الحياة في بلادهن. فإذا كان الآباء أو الأزواج يعتقدون أن قيم الغرب أو عاداته «منحلة»، فقد يتصرفون على نحو فيه حماية زائدة لنساء الأسرة. فقد اكتشفت البروفيسور سعاد جوزيف عندما زارت لبنان أنها تربت «حسب معايير السلوك الأنثوي في لبنان الذي تركه (والداي) في عام 1949... وأن كثيرا من بنات عمومتي نشأن نشأة أكثر

ليبرالية في لبنان نفسها من تلك التي نشأت عليها في الولايات المتحدة»[34]. وهناك رسالة الماجستير التي قامت بها كارمن كاير وتدرس فيها الجيل الثاني من المسلمات الهنديات والباكستانيات اللاتي يعشن في تورونتو الكبرى؛ وقد وجدت أن خوف الآباء من أن تتزوج بناتهن من مسلمين غير هنود أو باكستان، أو غير مسلمين على الإطلاق، أدى إلى مزيد من القيود على تحركاتهن، وكذلك إلى نزوع أكبر نحو الزواج المرتب عائلياً[35]. وهناك مثال آخر أقل ضرراً، ولكن له أهميته، وهو أن بعض النساء ذكرن قلة فرص ممارسة الرياضة لأن المرافق الرياضية مختلطة، ولا يمكن للمسلمات أن يتدربن إلا إذا تم تخصيص ساعات محددة لهن.

تقول كلارا كونولي، متحدثةً باسم جماعة تسمى «نساء ضد الأصولية»، إن «جوهر الأجندة الأصولية هو السيطرة على عقول النساء وأجسادهن»[36]. ويشار إلى الحجاب بوصفه الأداة التي يسيطر بها الرجال على الشهوة الجنسية للنساء. والحقيقة أن نقد جماعة «نساء ضد الأصولية» ما هو إلى صدى لألوان النقد النسوية الكثيرة ضد الإسلام، وهو نقد صحيح جزئياً. والإسلام بالفعل يتحكم في الشهوة الجنسية الأنثوية إذ إنه يحرّم الجنس خارج إطار الزواج. ولكن النساء اللاتي حاورتهن رفضن الدلالات السلبية لهذا النقد النسوي؛ فالإسلام يتحكم بالشهوة الجنسية الذكورية أيضاً. فالرجال بالمثل محرم عليهم أي ممارسة جنسية خارج إطار الزواج؛ بل إن نساء عديدات قلن إن الأمر بالحجاب من الله وليس من الرجال، وهذا أمر غير مغرض ولا مرتبط بجنس من يؤمر به. تقول ساديا: «لو علمن أنه أمر الله لما قلن ما قلن، حسب ما أظن». توسعت ياسمين في هذه النقطة بأن أشارت أن الله خلق الرجال والنساء ولأنه الأعلم بالطبيعة البشرية، فهو أعلم بالخير للبشر، حتى يقيموا مجتمعاً طيباً يوافق كمال بقية ما خلق الله.

تعرب زينب عن غضبها من فكرة كون الحجاب أداة يستخدمها الرجال للتحكم في النساء، مثلما غضبت من السؤال عما إذا كان الحجاب يقيد حرية المرأة وتقول: «أظن أن هذا من السخف بحيث لا يستحق مجرد التعليق». وقالت إن الفلاحة ترتدي الطرحة لتحمي شعرها منذ سنوات طويلة. وللحق إنني لا أجد الكلمات [دهشة]

لأني لا أعرف كيف يمكن لمجرد منديل للرأس أن يتحكم فيك؟ فأنت تستطيعين أن تفعلي ما يحلو لك سواء كان على رأسك طرحة أم لا.» وقالت إن حزام العفة كان أداة أفضل للتحكم في الشهوة الجنسية للنساء: «فهذا ما أسميه تحكماً، ولكن مجرد قطعة قماش؟ أبداً لا يمكن أن أسميها تحكماً».

صحيح أن نساء عديدات يعتقدن جازمات، أن بعض الرجال في دول إسلامية في مراحل تاريخية معينة، حاولوا التحكم في النساء واستعملوا الحجاب أداة لذلك، ولكن نساء العينة لم يصدقن أن مثل هذا السلوك مقبول من الرجل المسلم، وقلن إن ذلك كان تفسيراً ثقافياً سلبياً للإسلام، أو استخداماً ذكورياً للدين كمبرر لقهر النساء. تقول نور، التي عاشت في السعودية لمدة تسع سنوات، إن السعودية مثال صريح «للدولة التي تستخدم الدين استخداماً» غير صحيح، لا سيما الحجاب، بغرض قهر النساء عن طريق إبقائهن في البيوت وإسكات أصواتهن، كما حرمن من التعليم في الماضي. «برغم أن هذا ليس المقصود على الإطلاق، [لأنك] إذا قرأت المصادر، القرآن والسنة أو سيرة الرسول سترين أن عائشة (زوج الرسول ﷺ) رضي الله عنها،كانت تخرج من البيت. وكانت النساء في حركة دائبة ونشاط ملحوظ في المجتمع».

وترى رانيا في إيران دولة أخرى تسيئ استخدام الدين الإسلامي؛ فهي تشعر أن الحجاب هناك يمكن أن يرمز إلى القهر، لأنه مفروض على النساء من قبل نظام سياسي. وتشير رانيا إلى أن «القرآن يقول «لا إكراه في الدين» أقصد أن الناس يجب أن يفعلوا ما يفعلونه بإرادتهم الحرة». وتشعر رانيا بالأسف من أجل الإيرانيات «لأنهن يتلقين أفكاراً خاطئة عن الإسلام».

أما صفية فكانت غاضبة جداً من تصرفات المسلمين في بلدها، في سعيهم لقتال الحكومة وتطبيق «الإسلام»، وترى أنهم يتبعون «طريقاً خاطئاً» عندما يستخدمون العنف.» فالإسلام لا [يفرض] بالقوة، ... لابد أن تؤمن به؛ فإذا لم تؤمن به، فلن تحبه، أولن تتبعه. إنهم يدفعون الناس نحو كراهية الإسلام... إنهم يقتلون، يغتصبون... لو كانوا مسلمين حقاً لما فعلوا ذلك، فهذا ضد الدين... فلقد قتلوا حتى الأطفال... لا أظن أنهم مسلمون ولا أعرف ماذا أسميهم».

6ـ تطبيع اجتماعي أم إجبار

عندما تقول الكنديات للمسلمات إنهن «حرائر» في كندا، وينبغي أن يخلعن حجابهن؛ فهن يرددن قولاً قديماً يصم الحجاب بالقهر لأنه «مفروض»، وحتى عندما يعرفن أن المسلمات لا يرتدينه بسبب قانون فرضته الدولة، يظل الفرض بأن النساء قد تعرضن لغسيل مخ على يد أسرهن أو ثقافتهن، جعلهن يؤمنّ بالحجاب، وأن المؤمنات بالحجاب يفتقرن إلى الوعي الذهني الذي يمكنهن من النظر الناقد إلى تقاليدهن. قالت امرأة هذا الكلام لإحدى صديقاتي، وقد صدمت حين علمت أن صديقتي اعتنقت الإسلام في العشرينيات من عمرها وأنها لم ترتدِ الحجاب إلا في سن 33. والمقصود هنا أن كل إنسان ينشأ في ثقافة تحاول تطبيع أفرادها اجتماعياً ليعرفوا السلوك المقبول وغير المقبول. ويحاول كثير من المسلمين أن يطبّعوا أطفالهم اجتماعياً بحيث يعتقدون أن ارتداء الحجاب أمر طيب. وكثير ممن لا يؤمنون بأن الحجاب أمر محمود، غالباً ما يقولون إن المحجبات تعرضن لغسيل مخ حتى يؤمنّ بالتحجب. ولكن حتى لو لم يتفق المرء مع التفسير الإسلامي للحجاب، فإن التنشئة الاجتماعية على أن الحجاب أمر محمود لا تتساوى مع فرضه بالقوة. فكل الغربيين يُنشؤون اجتماعياً على اعتبار الحجاب قهراً. وكما تقول نادية، وهي امرأة أجرت معها هيلين واطسون مقابلة شخصية» [إن ارتداء الحجاب] لا يختلف كثيراً عن ارتداء مشدات الصدر في سن معينة، أو خاتم الزواج الذي يدل على أنك متزوجة. فأغلب البنات اللاتي أعرفهن لا يفكرن عند ارتدائهن هذين الشيئين».

6-1 ردود أفعال سلبية من مسلمين ضد الحجاب

بينما الرؤية الشائعة في الغرب أن المسلمات مجبرات على ارتداء الحجاب من قبل أسرهن، الأب أو الزوج عادة، فإن كثيراً من الأسر المسلمة، لا سيما أسر الطبقة المتوسطة والطبقة العليا تعارض الحجاب كالغربيين تماماً. ففي المئة سنة ونيف الأخيرة، كان الاتجاه في دول إسلامية كثيرة هو العلمنة على النسق الغربي، وكانت العلمنة ترى أن كثيراً من العادات الإسلامية مجرد مخلفات من أسلوب حياة غير حديثة ومتخلفة، وقد تخلى عن الحجاب كثيرون ممن انتهجوا درب التقدم (انظر

الفصل الأول) وغالباً ما يعترض المسلمون الذين نشؤوا في كندا على الحجاب ويلتزمون الرؤية الغربية لمعنى الحجاب؛ فقد شكت امرأة من الجيل الثاني لشارون أبي لبن قائلة: «أكره رؤية هذه الأغطية على الرؤوس فهي تجعل من ترتديها تبدو جاهلة جداً»[38].

وتدور اعتراضات المسلمين على الحجاب حالياً حول الطبقة والزواج والجمال، وكما رأينا في المقابلات الشخصية مع خديجة وفاطمة، فإن أهل النخب المسلمين الذين يميلون نحو التغريب والعلمانية أكثر مما يفعل باقي مواطنيهم، يمكن أن يروا في الحجاب علامة على التخلف والمركز الطبقي المتدني[39]. وقد اكتشفت إليزابيث هذا الاتجاه من اعتراضات خطيبها على رغبتها في ارتداء الحجاب؛ فقد كان وأسرته يعتبرون أن الحجاب لا ترتديه إلا بنات الطبقات الدنيا أو العجائز، ولا ترتديه فتاة في ريعان شبابها، كما أنهم كانوا يرون أن الحجاب يفتقر إلى الجاذبية[40]. تذكرت ياسمين أن ارتداء الحجاب لم يكن شائعاً في بلدها عندما كانت في سن المراهقة. وتذكرت أن مديرة المدرسة كانت تعاقب بنتاً في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها يومياً لارتدائها الحجاب. وعندما سئلت هذه الفتاة عن سبب ارتدائها الحجاب قالت إن الشيخ الذي يدرس فصلها في المسجد قال لهن: إن الحجاب ورد في القرآن، وهذا يجعله فرضاً. وتظن ياسمين أن الفتاة «خلعت الحجاب فيما بعد».

تمثل فرص الزواج والجمال الفئة الثانية من الأسباب التي تجعل الأسر المسلمة تنفر من الحجاب. فيعتقد مسلمون كثر أن المرأة المسلمة المحجبة غير جذابة، ولهذا تضيع فرصتها في الزواج[41]. تذكر ياسمين معركة ارتدائها الحجاب في وطنها، فقد بدأت في التحجب عندما كانت تعد لدخول الجامعة في سن السابعة عشرة تقريباً، وكما ذكرت سابقاً، لم يكن الحجاب شائعاً في بلدها آنذاك. وأرادت ياسمين أن ترتدي الحجاب لأنها شعرت أن دينها يفرضه، وأن الجامعة بيئة تتيح التلميحات الجنسية والمغازلات، وأن الحجاب سيكون حماية لها من ذلك. وكانت أسرتها تعارض ذلك تماماً، وجعلها ذلك هدفاً لمحاضرات عديدة من كثير من أفراد العائلة؛ «لم يفهموا الأمر، لذا أجلت الموضوع لمدة عام». ولكن عندما التحقت ياسمين بالجامعة

لاحظت سلوكيات لا تعدها مقبولة بين البنات والأولاد؛ فصادقت مسلمات ملتزمات مثلها منحنها الدعم الكافي لمقاومة رغبات أسرتها، تقول: «وهذه المرة لم تستطع أسرتي أن تقاوم».

كانت أم نادية كذلك غير راضية عن قرار ابنتها بارتداء الحجاب للأسباب نفسها التي رأتها أسرتا ياسمين ورانيا: أي لأنها لن تجد فرصة للزواج. ولكن نادية لم تتعرض للقدر نفسه من الضغط والنقد الذي تعرضت له ياسمين ورانيا. بل إن أم نادية بدأت ارتداء الحجاب بعد نادية بستة أشهر. كانت نادية قد ارتبطت وهي في أوائل العشرينيات من عمرها برجل قدمته أسرتها لها، ولكنه كان معترضاً على ارتدائها الحجاب، قالت نادية «تصالحت مع حقيقة أنه لم يكن ليقبل هذا؛ لذا انقطعت العلاقة.» وتذكر نادية أن أمها طلبت منها في ذلك الوقت أن تفكر في هذا الرجل كزوج للمستقبل ومن ثم لابد أن تفكر ملياً في مسألة الاستمرار في ارتداء الحجاب.

رأينا أن المسلمات يردن تغطية شعورهن، ويخترن ذلك بإرادتهن؛ ولكن صورة المسلمة في الغرب هي في العادة صورة المرأة التي تغطي وجهها. وربما أمكن إقناع الناس أن النساء اللاتي يغطين رؤوسهن لم يتعرضن لغسيل مخ، ولكن ماذا عن اللاتي يغطين وجوههن؟[42] حتى في هذا الموقف هناك من المسلمات من يردن تغطية وجوههن، ومن يفعلن ذلك فعلاً. فقد قررت ياسمين بعد زواجها أن تغطي وجهها لأنها ـ برغم تغطية شعرها ـ كانت تشعر أن الناس يحملقون في وجهها طوال الوقت في الشوارع المزدحمة والمواصلات العامة، وتقول: «كأنهم يأكلون وجهي بعيونهم». لم تكن مرتاحة لذلك، فقررت أن تغطي وجهها، حتى تمنعهم من ذلك. ولم يكن زوجها حريصاً على أن تغطي وجهها لأنهم بصدد الانتقال إلى كندا، فنصحها أن تتريث وتؤجل قرارها إلى ما بعد الوصول إلى كندا. «قلت «لا»، أريد أن أغطي وجهي، فقال «وهو كذلك». فغطيت وجهي وجئت إلى هنا وقد غطيته». قالت ياسمين إن ملابسها صدمت الكنديين، فقد كانوا يحملقون ويعلقون بكلام سيئ أحياناً، ولم يكن زوجها يشعر بالراحة عندما تخرج بصحبته على هذا النحو. وقررت ياسمين أن تغطية

وجهها ليس ضرورياً في كندا، لأن الناس لم يحملقوا في وجهها كما كانت الحال في بلدها، كما أنها كانت تشعر بالقلق من أن تعطي الكنديين انطباعاً سيئاً عن الإسلام، فخلعت نقابها بعد ستة أشهر من وصولها.

6– 2 ردود أفعال أهالي معتنقات الإسلام

لا يفهم الغرب الإسلام فهماً جيداً، ويتسبب هذا في مصاعب شديدة لمن يعتنقونه مع أسرهم وأصدقائهم وزملائهم، وذلك بشأن اعتناقهم الإسلام وارتداء النساء منهم الحجاب. تقر رنيم بذلك قائلة: إن أخي لم يكلمني لمدة ستة أشهر، وكانت أمي شديدة الحزن.» كانت أم رنيم قلقة من أن يظنها الجيران «أماً» سيئة، لأنها لم تنجح في الحفاظ على [ابنتها] في الملة الكاثوليكية». أما أبو رنيم فكان يتظاهر بأن ذلك «لم يكن يشغله»، برغم ما كان يصدر عنه من تعليقات سخيفة عن ملابسها ورفضه أن يظهر مع ابنته بالحجاب أمام الناس(43). ومع الزمن تحسن اتجاه أم رنيم نحو تحول ابنتها إلى الإسلام. وكانت قد تحدثت في أحد الأيام مع قس أثناء رحلة بالحافلة، وسألته عما إذا كان الإسلام شيء طيب، فأجاب الرجل: «نعم، نعم، فنحن نعمل معهم، الفرق الوحيد هو أنهم لا يؤمنون بالصليب.» ومن الواضح أن هذه المحادثة ساعدت الأم على أن تكون أكثر تقبلاً للأمر.

أما باسمة فقد ذكرت نوعين من ردود الأفعال الأسرية «فهناك من يقولون «تبدين كأجنبية بغيضة»... «ألا تعرفين كيف يبدو منظرك، لماذا ترتدين مثل هذه الملابس؟» ... بينما كان أخي يعد سيره معي في الشارع وارتدائي غطاء الرأس والملابس السابغة الفضفاضة أمراً مثيراً؛ لأن ذلك كان شيئاً غريباً يجعل كل أصدقائه يقولون «هاي! ما هذا؟». كانت أسرة باسمة أقرب إلى تقبل أمر إسلامها بهدوء؛ لكن ابنها وابنتها قبلا هذا على نحو أفضل من أمها التي لم تكن ترتاح لكل الديانات المنظمة. أما ابنتها فقالت «فقط تجنبي وعظي، لقد كنت دائماً غريبة، فلماذا ستخالفين طبعك في كبرك؟». أما زينب فقالت إن حفيدها، وهو في السادسة من العمر، كان شديد الفخر بجدته؛ إذ كانت تعلمه وأخته الإسلام، وقد حكى كيف أربك معلمته تماماً في إحدى الحصص عندما طلبت منه أن يفعل شيئاً لليوم التالي فقال ««أوكى»، إن شاء الله».

3-6 ردود أفعال إيجابية نحو الحجاب من أسر مسلمة

فصلت في تصنيف وشرح ردود الأفعال السلبية من الأسر المسلمة نحو الحجاب، لأن الصورة الغالبة في الغرب أن الأسر المسلمة تكره نساءها على ارتداء الحجاب. فالنساء اللاتي يكافحن لارتداء الحجاب ضد رغبة أسرهن يخضن معركة على جبهتين؛ إذ عليهن التعامل مع ردود أفعال المجتمع الكندي غير المسلم الذي يعتقد أنهن مكرهات على التحجب، ويعانين الكبت بسبب التحجب. أما في الجبهة الداخلية - داخل العائلة - حيث يحتجن أكبر العون لمواجهة ردود الأفعال العامة السلبية تجاه حجابهن، فيجدن ضغطاً مماثلاً.

وبطبيعة الحال فليس كل الأسر تعترض على ارتداء نسائها الحجاب، ويتوقع كثير منهم أن ترتديه نساؤهم، بل ويعلمونهن أن هذا هو ما ينبغي ارتداؤه. وحسب معتقد الابنة فقد تجد هذا التعليم طبيعياً أو تعده ضغطاً. ولقد رأينا تقبل نور لتعاليم أسرتها بشأن الحجاب، كما تعلمت ساديا في سن صغيرة أن التحجب من الإسلام، وقبلت ارتداءه عندما حان الوقت. وبدأت ساديا ارتداء الحجاب طوال الوقت في نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها. وقد أكدت لي أنها ارتدته بخالص إرادتها، ولأنها تؤمن بأن القرآن يأمرها بارتدائه، تقول: «لقد كان لدي الخيار... إن لم ترتديه لله، فما الجدوى؟ ...لم يجبرني أحد قط على ارتدائه، فعلت ذلك بمحض إرادتي؛ فقد كان الخيار في يدي».

7- الحجاب ورؤية الذات

للحجاب جانب ظهر بقوة في المقابلات الشخصية هو أن ارتداءه كان يمنح هؤلاء النساء مصادر للقوة الداخلية ومستوى عالياً من الثقة وتقدير الذات. وتعتقد رانيا أن هذا منفعة أخرى للمجتمع عامة وليس للنساء المعنيات فحسب: «ينشأ الأطفال... وهم يرون أن النساء يمكن أن ينجحن دون أن يتمتعن بالجمال أو تضطر إلى الملاطفة الجنسية أو نحو ذلك». والحقيقة أنه برغم صدق فكرة نور بأن الحجاب ليس دليلاً على الجمال (لأن النساء غير الجميلات يرتدينه أيضاً) فالقول بأن النساء يغطين «مفاتنهن» و«جمالهن» يتردد كثيراً، فهذه الفكرة تظهر في محاولات حليمة لأن تجيب

عن أسئلة ولدها ابن السنوات الثلاث عن سبب تحجب النساء المسلمات وعدم تحجب الرجال مثلهن. تقول حليمة وزوجها لابنيهما إنهما «لا يريدان أن يرى الرجال أمي لأن النساء جميلات... وأعتقد أنه يفهم بقدر ما ولكن ليس فهماً حقيقياً».

أكدت نساء كثيرات أنهن يشعرن بالراحة عند ارتداء الحجاب فهو يمنحهن شعوراً بالرضا عن أنفسهن؛ فتؤكد إيلين أنها بالحجاب تشعر «كأني أفعل شيئاً أرضي به الله، فهذا، كما تعرفين، يجعلك تشعرين بالرضا عن نفسك، ويجعلك تشعرين بالاختلاف عن غيرك، ولكنه اختلاف طيب، لأنك لا تعرضين نفسك، كما تعرفين، لأمور كثيرة قد تتعرضين لها وأنت بغير حجاب.»

وتشعر رانيا بالراحة الشديدة وهي ترتدي الحجاب: فهو يمنحها شعوراً بالفخر والأمان؛ إذ تعلم أن الناس سيأخذونها بجدية. وهي تعتقد أن هذا هو «خير لباس». فعند ارتداء الحجاب في الأماكن العامة تظن رانيا أنها تثبت أن المسلمين يعيشون حياة عادية تماماً مثل غيرهم من البشر، وهكذا فهي «تمثل حضوراً [إيجابياً] للإسلام بالنسبة للناس».

أما نور فقد أحبت ارتداء الحجاب، لأنها وجدت أن زميلاتها الطالبات كثيراً ما يأتين إليها يطلبن ما تكتبه من دروس، أو يسألنها المساعدة في مسائل دراسية، أو يطلبن رأيها في مسائل فلسفية مثل «ما الروح في رأيك؟» وهي تستمتع بذلك جداً، حتى أنها ضحكت من اعتبارها «الأم تريزا» وقالت «أحب أن أكون في عون الآخرين».

قالت ياسمين إنها تستمتع بالحياة، وأن التدين ليس نوعاً من العذاب كما يراه بعض الناس في وطنها. أما ارتداء الحجاب فيجلب لها السكينة وقدراً كبيراً من احترام الذات لأنها لا تركز على جمالها وعلى الموضات: «أشعر بالراحة لأن هذا هو ما يريده الله من البشر».

يرى بعض النساء أن ارتداء الحجاب خبرة تحررية. وتتفق هذه الرؤية للحجاب مع نقد النسوية تحويل جسم المرأة إلى سلعة في المجتمع الرأسمالي (وربما مأخوذة عنه). فالفكرة هنا أن ارتداء غطاء للرأس وملابس فضفاضة يحرر المرأة، لأن المرأة التي ترتدي الحجاب لا يحكم عليها بمظهرها الخارجي واتباعها (أو عدم اتباعها)

مثال جمال يتغير مع الموضة. وهذه زاوية تستحق الالتفات في نقد مفهوم «المرأة كائن جنسي» ، ذلك أن أحد أسباب المعارضة الشديدة للحجاب التي تبديها فاطمة المرنيسي وغيرها هو القول بأن الحجاب (وليس غياب الحجاب) هو الذي يجسد النظرة إلى المرأة بوصفها كائناً جنسياً لا غير (سأتابع عرض هذه الاختلافات بتفصيل أكبر في الفصل الخامس). فباسمة، مثلاً، والتي ترتدي الحجاب منذ ثلاث عشرة سنة (مذ كانت في الثامنة عشرة) تجد في الحجاب «تحرراً» لا سيما أنها نشأت في الغرب حيث الاهتمام الشديد بالرشاقة واتباع الموضة. وتجد باسمة في الحجاب «إنسانية» لأنه يستبعد «هراء الجاذبية الجنسية» وتصير المرأة وجهاً فقط، وليس «كائناً جنسياً» وتضيف باسمة: (قد ينزعج لهذا من يقفون على الطرف الآخر، عندما أقول إن الحجاب صار جزءاً من هويتي... ولا أظن أنني أستطيع الخروج بدونه، سأشعر كأني عارية).

أما من لا يرتدين الحجاب طوال الوقت؛ فطبيعي أن تكون رؤيتهن مختلفة. فإيمان «دائماً ما تكون في حالة وعي بالذات» وتشعر بالحرج عندما ترتدي الحجاب، حتى في المناسبات الإسلامية. وهي تقول إنها تظن «إنك عندما ترتدين الحجاب ستكونين محط النظر والحملقة وهذا شيء يبعث على التوتر». ولكن باسمة أشارت إلى أن ذلك لم يكن أمراً حتمياً إذ تقول: «في بداية ارتدائك الحجاب يكون الوعي بالذات عالياً، وتشعرين كأن الجميع يحملقون بك، ولكن ما إن تعتادينه فإنك ستشعرين براحة أكبر بهويتك الجديدة... وستدركين أن الناس جميعاً لا يحملقون بك، بعضهم يفعل ولكن ليس الجميع؛ فكثير من الناس يقبلونك كما يرونك». وهي ترى أن مدة التكيف تتوقف على شخصية المرأة: فهي أقصر «لمن لديهن شجاعة اليقين». كما أنها تتأثر باتجاه المرأة نحو الآخرين وتقول: «فأحياناً تجدين ما تتوقعين، فهي مسألة ثقة».

تتفق نادية مع باسمة وهي تضيف بعداً استعراضياً إذ تقول: «أظن أن لدي قدراً من العناد... و... الفردية ... برغم أني لا أحب ... تسليط الضوء... أظن أن الحجاب يضعك بالتأكيد في بقعة الضوء، وبرغم أنني ارفض ذلك، فإنني أؤكد أنني أحبه على نحو ما». وهي تتفق على عدم سهولة ذلك على من لا «تريد لفت الانتباه، ولا تريد سوى الاهتمام بشؤونها».

obeikandi.com

د ـ ارتداء الحجاب في الغرب

خبرات حياتية

تعاني المحجبات في الغرب إهانات يومية ممن حولهن بسبب حجابهن؛ فالصورة الغربية بأنهن مقهورات أو يمثلن ديانة إرهابية تجعل تقبل المجتمع الكندي لهن أمراً غير يسير. على سبيل المثال، نشرت جريدة «تورونتو ستار» في عام 1996 مقالاً مرفقاً به صورتان، إحداهما لامرأة تغطي شعرها والأخرى تغطي وجهها، وكان عنوان المقال «هل هو سلوك ديني أم خطر على المجتمع مختفٍ وراء حجاب؟ فالبعض يرى ارتداء الحجاب تعبيراً عن التدين والاحتشام. ويشتم منه آخرون دافعاً سياسياً»[44].

أود أن أختم هذا الفصل بعرض خبرات ارتداء الحجاب في مجتمع لا يرحب بالتزام النساء العلني بالإسلام. فما حال من تتحجب في بيئة كهذه؟

1ـ ردود أفعال من المجتمع الكبير

أكد لي كثير من النساء اللاتي قابلتهن في المقابلات الشخصية أن ردود الأفعال العدائية التي واجهنها لم تكن كثيرة على نحو غير محتمل، بل إن بعضهن تلقين ردود أفعال إيجابية من غير المسلمين. وكان رأيهن أن تورونتو مدينة متعددة الثقافات مما يجعل أهلها معتادين رؤية كل أشكال الملابس، كما أن من تقل تعاملاتها خارج الجالية الإسلامية تقل مشكلاتها في هذا الجانب. فزينب لم تواجه أي تعاملات مؤذية. وتمشي زينب بعصاة وهي تقول إن الناس قبل ارتدائها الحجاب كانوا يمسكون لها باب المصعد حتى تدخل، ولكن ذلك توقف بعده. وفي إحدى المرات في المصعد وهي متجهة إلى شقتها في العمارة، بعد ارتدائها الحجاب بصورة تجريبية (قبل أن تسلم، حتى تختبر حياتها «كمسلمة») عبّرت سيدة عن تعاطفها معها لإصابتها بآلام الأذن، فهكذا ظنت المرأة عندما رأت زينب ترتدي غطاءً للرأس في الصيف. شرحت زينب للمرأة السبب الحقيقي وعندها، كما تقول زينب: «نظرت المرأة إليّ نظرة المرتاب».

تروي رنيم قصة غريبة؛ إذ كانت تسير في أحد شوارع وسط المدينة وكانت في شهرها التاسع من الحمل، وتصور أحد الأشخاص خطأً أنها راهبة، فتقدم نحوها وقال: «ما هذا أيتها الأخت؟ ما هذا؟»

وبرغم طرافة القصص، فالمسلمات كثيراً ما يتعرضن للمضايقات من غرباء بسبب ما يلبسن. تحكي باسمة أنها كانت ذات مرة في قطار الأنفاق مع أمها (غير المسلمة) وابنتها ذات السنوات الأربع، التي كانت «ترتدي كنزة شتوية ذات غطاء للرأس، وكانت الطفلة تصر على رفعها، حتى تبدو كأنها في تدريب رياضي». وكان يجلس إلى جوارهن زوجان يتناقشان بالإنجليزية بصوت عالٍ عن التنشئة الدينية «وكيف يضع الناس الدين في جوف ذويهم». ويظهر السياق أن باسمة وأسرتها كنّ موضوع المحادثة، إذ افترض الزوجان المتحدثان أنهن لا يفهمن الإنجليزية، تقول باسمة: «فالتفتُ إليهما وابتسمت برقة وسألتهما عن كيفية الذهاب إلى مكان ما بلغة إنجليزية طلقة بها لكنة [أجنبية/ غربية] بعدها غيّر الزوجان موضوع الحديث».

برغم ذلك، تعتبر باسمة كندا متنفساً بعد خبرتها في بلدها؛ فهناك كانت تواجه من يصرخ فيها في الشارع واصفاً إياها «بخائنة جنسها». وكان حسها الفكاهي يعينها على تحمل مثل هذه الانفعالات. فعندما كان يصرخ بعضهم في وجهها «عودي من حيث أتيت» كانت تجيب في لكنة واضحة سليمة (المسافة إلى «شاير» طويلة جداً وكان ذلك يربكهم)، كما تقول باسمة.

تروي نساء عديدات وقائع سب عديدة تعرضن لها من غرباء: فقد اقترب شاب بسيارته من ياسمين وصرخ فيها «أيتها الـ...... القذرة». وكانت رنيم تمشي وسط المدينة عندما اقتربت منها امرأة وقالت لها «اذهبي إلى الـ....». وكانت ساديا في سوق شوبرزدراج مارت مع أبيها، عندما قال لها رجل «[كلمة نابية]» وليس هناك من سبيل طبعاً لمعرفة هل يقول هؤلاء الناس ذلك لأنهن مسلمات؟، ولكن مجرد طرح السؤال يكفي لإقلاق المسلمات.

وهناك أنواع أخرى من المضايقات تتعلق بكون المرأة مسلمة (أو على الأقل أجنبية). فخديجة التي عاشت في كندا نحو 27 عاماً حتى الآن، تذكر أنه عندما كانت توصِّل ابنتها للجامعة، ولاحقتها امرأة بلا هوادة إلى مكان انتظار السيارات، ثم صرخت فيها «لابد أن تعودي من حيث أتيت». مرة أخرى، عندما كانت ضمن مجموعة لتنسيق علاقات الجاليات والأجناس، كان عليهن التعامل مع شكاوى من كنائس مختلفة

obeikandi.com

بشأن عرض للخط العربي في المركز المدني. وعندما سأل العمدة (وكان في لجنة جماعة الجاليات) لماذا تريد الجماعات الكنسية إلغاء عرض الخط العربي، قيل له إن المسلمين أشرار، لا يقبلون على العمل، وإرهابيون ـ إلى آخره. ورغم طلب الكنائس الإلغاء و«عقبات» مجلس المدينة، فقد كافحت مجموعة الجاليات ونجحت في إعادة العرض. تعترف خديجة أن القصة كلها «فتحت العيون. فلم أكن أدري بمدى قبح الصورة التي يقدمها عنا [الإعلام]».

وتروي نادية أنها ذات يوم كانت تقف في انتظار المصعد في المستشفى الذي تعمل به، عندما مر رجل بجوارها وقال: «أين تظنين نفسك؟ في الشرق الأوسط الـ .....؟» ضحكت نادية من أن أغلب التعليقات المسيئة كانت تلقى دون مواجهة: «فهم لا يقولون ما يقولون في وجهك، وإنما يلقونها في طريقك، .... فتنظرين حولك وتقولين... لعلي المقصودة بهذا».

تقول ساديا إن الناس ينظرون إليها وكأنها من «الفضاء الخارجي». فبعد المدرسة، ذات نهار كانت تتجه إلى المصعد، وكانت هناك امرأة تنتظر المصعد، ظلت المرأة تقول لها ابتعدي، وعندما وصل المصعد أسرعت بالدخول إليه وأغلقت الباب دونها. قالت ساديا ربما ظنت المرأة «أنني سأقتلها أو أؤذيها بأي طريقة، حزنت ثم بدأت أضحك، لأنني أدركت مدى غبائها».

أـ عندما لا تكون للهوية الإسلامية علاقة بالموقف

كما تواجه المسلمات مشكلات مع الناس، في المواقف التي تبدو فيها هويتهن لا علاقة لها بالموقف الحالي. فتجد نادية أن أحد مساوئ ارتداء الحجاب في الغرب هو أن الناس، ولا سيما من تقابلهم للمرة الأولى، كثيراً ما يلتفتون إلى «جدة» الحجاب بدلاً من الالتفات إلى الأمر الذي بيدهم. فقد لاحظت أنها عندما تكلم الناس لا يستمعون إلى ما تقوله فعلاً وربما يسألونها هل ولدت في كندا؟ «ثم يغيرون الموضوع تماماً» مفضلين أن يتحدثوا عن نادية بدلاً من الموضوع الأصلي.

ولقد واجه بعض النساء موقفاً صعباً عند زيارة الطبيب. فقد وجدت حليمة على سبيل المثال، نفسها مضطرة للتعامل مع اشمئزاز الطبيبة من تحولها للإسلام: «لم

يكن ما قالته [الطبيبة]، بل كان وجهها، [حليمة تضحك] فقد بدت وكأن الاشمئزاز تملكها، وصدمتها حقيقة أنني اتخذت الإسلام ديناً». واجهت زينب مشكلات مماثلة؛ فعندما كانت نزيلة إحدى مستشفيات تورونتو الكبرى، سألها الطبيب لماذا تريد أن تكون «مواطنة من الدرجة الثانية» أي مسلمة. «ألا تعلمين كيف تساء معاملة النساء في الإسلام؟» عبرت زينب عن دهشتها من أن رجلاً في مستواه التعليمي يعتقد ذلك. «قلت له «ولكنك إذا قرأت القرآن ستدرك أن النساء لسن مواطنات من الدرجة الثانية، بل فيما يخص النبي محمد ﷺ فإني اعتبره أول مناصر للنساء» [ولكن الطبيب] لم «يغير موقفه السلبي على الإطلاق».

الغريب في هذه القصة أن زينب كانت مريضة في نفس المستشفى الذي تعمل به نادية، وهو مستشفى يفترض أن يهتم بالاحترام الثقافي والتنوع. بعد يومين من وقوع أحداث هذه القصة، جاء طبيب مسلم لزيارة زينب، وسألها إن كانت تريد حضور صلاة الجمعة التي تقام كل أسبوع في المستشفى. كانت التعليقات السلبية للطبيب الأول مدهشة ومقلقة، فلم يكن الأمر أن الرجل يردد أفكار الصور النمطية بشأن الإسلام والنساء على أذن المريضة فحسب، وإنما المسألة كيفية تعامله مع نادية وغيرها من المسلمات، طبيبات كن أو ممرضات.

أما رانيا، وهي طبيبة، فقد واجهت مشكلات مماثلة مع المريضات عندما كانت تؤدي نيابتها الطبية حين كانت طبيبة مقيمة في بلدة أونتاريو. كانت طبيبة تحت الطلب، وقد استدعيت مرة لغرفة الطوارئ في الثالثة صباحاً لتفحص رجلاً في الثامنة والثمانين من عمره بصحبة ابنته. كان المريض المسن مهتماً بسؤالها عن غطاء رأسها («هل لديك شعر تحت هذا؟») أكثر من اهتمامه بوصف حالته المرضية التي تعين الطبيبة المرهقة على التشخيص.

و مرة أخرى كانت رانيا تسأل مريضة مسنة عن نوع السعال الذي تعانيه فسألتها المرأة: «من أي البلاد أنت؟» فأجابتها رانيا أنها من [أونتاريو]، واستمرت المشاورات الطبية حتى سألتها العجوز: «أي نوع من الزيّ الوطني هذا؟» فقالت رانيا إن ملابسها كندية وأنها ترتدي غطاء الرأس لأنها مسلمة. قالت المرأة: «حقاً! لدينا بعض المسلمين

اللطفاء في إنجلترا». وجدت رانيا في ذلك «استعلاء في تبسط... وشعرت وكأنها تريد أن تصنفني في فئة ثقافية ما»، وأضافت رانيا «هناك وقت لشرح هذا، وهناك أوقات نكتفي فيها بإجابة موجزة ثم نلتفت إلى أشياء أخرى... أقصد ربما تبدو المرأة مسلمة، ولكن لديها عمل ينبغي أن تؤديه، لذلك علينا أن نتكلم عن سبب وجودك هنا، أنا الطبيبة وأنت المريضة، مفهوم؟».

2ـ ردود أفعال في المدرسة

اثنتان فقط من النساء اللاتي قابلتهن في المقابلات الشخصية، ارتدتا الحجاب في المدرسة الثانوية في كندا، أما ساديا فقد كانت في مدرسة إسلامية. وبرغم أن نادية كانت تدرس في مدرسة ثانوية كاثوليكية، فإنها لم تواجه مشكلات بنفس القدر من الصعوبة التي واجهتها في كويبك في عام 1995، عندما خير البنات بين الطرد من المدرسة وخلع غطاء رؤوسهن، وكان الأولاد يسخرون من غطاء رأسها ويجذبونه. وذات مرة نجح أحدهم في نزعه عن رأسها، لكن شعوره بالإهانة لم يكن أقل من شعورها، فاعتذر، ولا تذكر ساديا أي مشكلات مع المدرسين. وكانت تعتقد أنهم لم يعرفوا «ماذا يفعلون» بشأنها، وبرغم أنها كانت تسير بين الناس تقول لهم «أنا مسلمة»، فقد كانت تقول إنهم «ربما تصوروا أنني فعلت ذلك دون علم أسرتي، وربما كانت أسرتي مسيحية وألحقوني بمدرسة كاثوليكية، ولكني كنت أتمرد وأدّعي فقط أنني مسلمة، لا أدري». ولكن ذات يوم، لاحظ المدير أن نادية ترتدي حجاباً (بنفس لون الزيّ المدرسي) وذكّرها أن ذلك «لم يكن ضمن اللوائح المدرسية. ولأن نادية لم تكن تعرفه فقد ردت عليه رداً «وقحاً»: ««وما أدراك؟» ولم يثر الموضوع مرة أخرى، وأتصور الآن أنني أفلتُّ من مشكلات كبيرة».

3ـ خبرات المسلمات حديثاً في مكان العمل

تواجه المسلمات حديثاً أنواعاً من المشكلات، تختلف عما يواجهها من ولدن مسلمات. وربما كان ذلك لأن الزملاء والزميلات يجدون تغيرات فيمن أسلمت حديثاً، لابد من التعامل معها. بدأت إليزابيث عملها في موقع جديد بعد عودتها من وراء البحار، وارتدت الحجاب في الأسبوعين الأولين. وقد أصابتها الصدمة والتوتر من

ردود أفعال الزملاء والعملاء لدرجة أنها اضطرت إلى خلعه. وترى إليزابيث أن أحد أسباب إخفاقها في استيعاب ردود الأفعال تلك هو أنها لم تجرب التمييز قط، كونها امرأة بيضاء. فما أنواع ما رأت من أحداث؟ كان أغلب الزملاء في حيرة من سبب ارتدائها غطاء رأس، وكانت تقول إنها ترتديه لأسباب دينية: «إن هذا أمر الله... وإنه يحمي النساء من نظرات الرجال ويصون عفتهن وتقواهن». كان الزملاء بعد هذا الشرح يردون: «حسناً، ولكن لماذا لا تخلعينه؟» وكان هذا رداً غريباً. وذات مرة رفض عميل (كندي أبيض) أن يسمح لها بالبقاء في الحجرة التي تتشاور معه فيها هي وزميلة لها. كما تسببت إليزابيث في اضطرابات كبيرة عندما طلبت تغيير مهامها بحيث لا تضطر إلى زيارة الرجال في بيوتهم بمفردها، ولا تضطر إلى أن تكون بمفردها مع العملاء الرجال في غرفة واحدة، لأنها كانت ترى أن ذلك أحد الجوانب المهمة في دينها الجديد. قال لها مديرها «مستحيل!» وتقرر أنها تحتاج إلى إرشاد متخصص. فاتصلت بأحد متخصصي الإرشاد، ولكنها وجدته جاهلاً بالإسلام، إذ ظن أن إليزابيث تذهب إلى عملها وقد غطت وجهها. غضبت إليزابيث جداً بسبب مجمل هذه الخبرة، لأن ذلك، كما قالت لمديرها «ديني وأنا أرضاه لنفسي، المشكلة أنكم لا تعطونني الفرصة للالتزام به». وعندما خلعت إليزابيث حجابها، سعد زملاؤها بذلك كثيراً وقالت زميلة لها: «أنت فعلاً تبدين أجمل بدونه». تثير قصة إليزابيث القلق تحديداً لأنها تعمل في الحكومة، والمفترض أن بيئة عملها بيئة مبادرة متسامحة، تمثل النموذج الذي تتبعه القوى العاملة في كل مكان. فإذا واجه موظفو الحكومة التمييز، فماذا نتوقع أن يحدث لغيرهم من العاملين؟ والغريب أن زملاءها في العمل كانوا يتعاملون مع عملاء مسلمين ومسلمات طوال الوقت، فكيف يتعاملون معهم ومعهن؟

كانت زينب ما تزال على رأس العمل عندما اعتنقت الإسلام، قالت إن صلتها بأغلب المعارف والزملاء من غير المسلمين انقطعت تدريجياً؛ ذلك أنهم لم يرتاحوا لكونها مسلمة وكانوا «يخشون أن أحدثهم كثيراً عن الإسلام». وكان زملاؤها في العمل، مثل زملاء إليزابيث، لا يعلمون عن الإسلام إلا قليلاً. «كانوا يعرفون مسألة الزواج بأربع وقطع يد السارق، والإرهابيين، وما إلى ذلك من أمور، وكانوا يخشونني».

كان زملاء العمل «يتحرجون من صحبتي، لم يرغبوا أن يكونوا بصحبة امرأة ترتدي الحجاب» وكانوا يتعللون أو يقولونها صراحة إنهم لا يستطيعون الخروج معها «وهي بهذه الملابس».

تقول إيلين: «إن أول يوم ذهبت فيه إلى العمل بالحجاب كان يوماً «صعباً عليهم، لم يكن صعباً عليّ؛ بل كان يوم اكتساب قوة لي، لأنه منحني قدراً كبيراً من القوة». عملت إيلين في هذا المكان طيلة ثماني سنوات، وكان زملاؤها قد علموا باعتناقها الإسلام وارتدائها الحجاب، لأنها قالت لهم ذلك، ولكن بدا أن بعض الزملاء لم يكونوا مستعدين عندما دخلت عليهم بالحجاب. وقد عدوا الأمر كأنه نكتة، لا سيما من قبل المشرف. ذكّرت إيلين المشرف أن جدتها أيضاً كانت ترتدي ثوباً طويلاً، وكانت تغطي شعرها، وكانت لفتة طيبة أن أخرج أحد الزملاء صورة لامرأة من ذلك العصر ليثبت كلام إيلين. فقال المشرف: «أنت لا غيرك من سيتحمل النقد». ولكن إيلين قالت بحزم إنها تستطيع معالجة الموقف: «أردت أن أوضح لهم من أول يوم أن ما كنت بصدده كان اختياري، وأنني لا أخشى ما يقوله أيٌّ منهم، وقد فعلتُ ذلك».

كانت رنيم تعمل لدى أستاذ جامعي عندما اعتنقت الإسلام. وكان هذا الأستاذ كاثوليكياً متعصباً، وقد نبه رنيم إلى عدم ذكر الإسلام أثناء ساعات العمل، وإن سئلت عنه. قالت رنيم إنها لن تقوم بالدعوة للإسلام، لكنها ترفض تجاهل تساؤلات الناس عن دينها، وسرعان ما قررت ترك العمل. قامت بتغيير عملها، فواجهت مشكلة مختلفة: فبعد ستة أشهر أدركت أن زملاءها لا يعرفون أنها مسلمة. وعندما سألت أحدهم عن تفسيره للحجاب الذي ترتديه، قال إنه كان يظنه «موضة».

3ـ ضغوط التكيف

في وجود هذه الأنواع من ردود الفعل السلبية للحجاب، ليس من المستغرب أن تحاول مسلمات كثيرات إخفاء هويتهن الإسلامية. فالضغوط شديدة من أجل التكيف مع أسلوب اللباس الغربي «العصري». تعرضت صفية لهذه الضغوط من زوجها حتى

«تبدو كندية». وبرغم أن زوجها لم يكن يعرف سبباً لتحجب المسلمات، كانت مشكلة صفية فيما يبدو هي أنهما يقيمان في الغرب، حيث الانطباع السيئ عن الحجاب؛ إذ لم يكن لدى زوجها بصفة شخصية مانع من ارتدائها الحجاب في الوطن الأصلي، بافتراض أن غيرها يرتديه. وفي الشهور الستة الأولى لإقامتها في كندا، كان أناس كثيرون يحملقون فيهما، حتى أنه لم يعد مرتاحاً لارتدائها الحجاب. لم تكن صفية تلقي لهذه النظرات بالاً، ولكن زوجها كان يتأثر بها. فإذا كان في مطعم مع صفية وهي ترتدي الحجاب، كان يقلق مما يجذبه مظهرهما من نظرات الموجودين، ويقول لها إنه يريد أن يبدو كندياً عندما يخرج مثل غيره من الناس.

وتثنّي نادية على هذا الكلام، لأن تكيف الرجال المسلمين أسهل من تكيف النساء المسلمات، مما يجعل الرجال يفقدون هويتهم الإسلامية على نحو أسرع من النساء المسلمات: «ففي المجتمع الكندي يسهل أن يذوب الرجال المسلمون، وأعتقد أن المسلمات اشد تمسكاً أو أشد صلابة من الرجال، ولا أرى القدر نفسه من الالتزام من إخوتنا طوال الوقت».

<u>4ً- مسلمة وكندية</u>

واجه نساء عينتي أنواعاً مختلفة من المشكلات في المجتمع غير الإسلامي من حولهن. كان التأويل الغربي للإسلام يسوؤهن جميعاً، وكن يلقين أغلب المسؤولية عن ذلك على الإعلام. وكما قالت خديجة في وضوح: «الإعلام لطخنا جميعاً، مراراً وتكراراً... ظهرنا على المسرح وليس لنا إلا أدوار الإرهابيين والانتحاريين.» فكيف أثرت هذه الخبرات على تمثل النساء للهوية الكندية؟ هل شعرن بالاغتراب بسبب بيئتهن المحيطة؟ هل شعرن بصراع بين كونهن مسلمات وكونهن «كنديات»؟

تدلل بعض الدراسات التي تناولت موضوع المسلمين في أمريكا الشمالية على أن أغلب أبناء المهاجرين يعرّفون أنفسهم كأمريكيين أو كنديين حسب السياق المحيط؛ ولكن تدين النساء في عينتي يميزهن عن أغلبية المسلمين في أمريكا الشمالية[45]. أشارت حليمة أن «القومية لا تعتبر من الإسلام» واتفق بقية النساء معها، إلا نهى، على

أنهن يرين أنفسهن مسلمات أولا، وتلي ذلك الجنسية، وربما لا تذكر، (قالت نهى إنها كندية أولاً ثم إسماعيلية ثم مسلمة). كانت زينب في أوائل العشرينيات من عمرها عندما قدمت إلى كندا من أوروبا، ولكنها لم تشعر أنها [أوروبية]، لأنها عاشت خمساً وأربعين سنة في كندا. وتقول: إن ضرورة تحديد هوية المواطنة هو مجرد استجابة للحكومات التي «تصر على هذه الأسئلة الغبية.» وهي كمسلمة تعتبر أن مسألة هوية المواطنة ليست ذات موضوع، فالإسلام هو «الدين الوحيد [الذي صادفته] لا يعرف حدوداً... فالله لم يخلق الدول [لذلك]، لا يهم اللغة التي تتكلمها، ولا يهم لونك، ولا الأطعمة التي تأكلها».

عبرت نساء عديدات عن استيائهن من ضرورة تصنيفهن على هذا النحو. قالت إيمان إن هويتها تشمل كونها مسلمة وكندية ومن أصول من وسط آسيا، وهي لا تحب أن تعدد صفات هويتها فيقال إنها كندية من آسيا الوسطى؛ فبرغم أن انتماءها العرقي إلى آسيا الوسطى جزء من هويتها، فإنها لم تعرّف نفسها بوصفها أحد أفراد جالية وسط آسيا في كندا، ولا تختلط كثيراً بهم. أما إليزابيث فأمها أوروبية شرقية، وأبوها كندي إنجليزي، لكنها لا تعرف نفسها بوصفها كندية أوروبية شرقية لأن ارتباطها بهذه الجاليات ضعيف، وإيمان وإليزابيث كلتاهما «بيضاء» ، وكان لهذا أثره في طريقة مناقشتهما لمسألة الهوية.

من الجوانب اللافتة للانتباه في المقابلة الشخصية التي أجريتها مع إيلين مقاومتها للتصنيف باعتبارها كندية «سوداء»، برغم أنها لا تجد فيه ما يسيء، تقول: «أنا لا أعرّف نفسي كإنسان أسود، ولا كمسلمة؛ بل كإنسان يستحق الاحترام من غيره من الناس... وشخص ينبغي أن يقدم نموذجاً يُحتذى به... أرى نفسي... إنساناً كان ضائعاً لسنوات ثم هداه الله، وأشعر أنني على الطريق القويم».

لم استفز مقاومة إيلين ولكن رد فعل نادية جعلني أتصور أن إيلين كانت تقاوم لأن المجتمع لم يجعلها تشعر بأنها كندية أصيلة. فقد أتت نادية إلى كندا من الكاريبي صغيرة جداً، لكنها لم تشعر أنها كاريبية، ولا تصورت نفسها بصورة مزدوجة الهوية أي «كندية كاريبية». ومثل أسرة إليزابيث، لم تختلط أسرة نادية كثيراً بالجالية

الكاريبية في مراحل نشأتها، بل كانت أقرب إلى تعريف نفسها كمسلمة أولاً ثم كندية. ولكنها لم تتصور أن الكنديين سيقبلونها ككندية أصيلة؛ بل «مزدوجة الانتماء[كندية كاريبية]»، وقد عاشت أربعاً وعشرين سنة في كندا، وتشعر أنها كندية، وهذا هو «إطارها المرجعي في الحياة».

تتناقض إجابة نادية تماماً مع إليزابيث وإيمان، وهما أيضاً لم يرتبطا بجاليتيهما العرقية في مراحل النشأة. وبرغم أن إليزابيث وإيمان لم يشكا أبداً في مسوغات هويتهما الكندية، فإن نادية دفعت إلى الشعور بأنها لن «تحظى» أبداً بالهوية «الكندية الكندية».

تقول دراسة يوسف عن المسلمات في أوتاوا: إن حرية الدين في كندا والسياسات متعددة الثقافات ساعدت المسلمات على الاحتفاظ بهويتهن الإسلامية، والتكيف مع المجتمع الكندي في الوقت نفسه. حتى أن الملتزمات بإقامة أركان الإسلام الخمس يرين أن «من اليسير ممارسة شعائر الإسلام في كندا»(46). وهذا برغم العنصرية أو التمييز الذي يشعر المسلمون أنهم يواجهونه، كما ذكرنا سابقاً. عبر أفراد عينة ف. يوسف عن اعتقادهن بأن السياسات متعددة الثقافات التي تتبعها الحكومة هي محاولات لمكافحة العنصرية والتمييز(47). ولا يمكن اعتبار نساء عينتي متفقات مع خلاصات ف. يوسف؛ فكلهن يشرن بإيجابية إلى كندا، بوصفها مجتمعاً متعدد الثقافات ومتعدد الديانات، وجميعهن يقدرن الحرية والحماية التي يمنحهن إياها القانون الكندي لممارسة شعائر دينهن مثل أي جماعة أخرى(48). وكلهن يفهمن لغة خطاب التعددية الثقافية العلمانية، ويعتقدن، كما قالت حليمة، أنه إذا كان للناس حرية الخروج أشباه عراة أمام الآخرين، فما الذي يحرم المسلمة حرية ارتداء الحجاب، الذي لا يضر أحداً.

وهكذا لم يجد نساء عينتي أي تعارض بين كونهن كنديات وكونهن مسلمات. وكما قالت ياسمين، الكنديون بشر، ومن ثم فهم بعض خلق الله كغيرهم. وتضم كندا أناساً من ألوان شتى وأفكار شتى، والحجاب للناس جميعاً لأنه من الله. «أعتقد أن سؤال [المذيعة] [هل يستطيع الحجاب أن يتجاوز اختبار الهوية الكندية؟] سؤال خاطئ».

ويبدو أن المجتمع غير المسلم هو الذي يفترض وجود «مشكلات» في كون المرء مسلماً وكندياً. فالمراهقات المرتديات حجاباً في كويبك، طردتهن مدرسة ثانوية بسبب حجابهن. أما السؤال «هل يستطيع الحجاب أن يتجاوز اختبار الهوية الكندية؟» فطرحته مذيعة قناة سي بي سي.

وأما الخبرات السيئة التي تواجهها المسلمات فتؤكد شكاً كان لدى إليزابيث بشأن تقبل غالبية المجتمع أبناء الشعوب الأخرى. وبرغم أن الحكومة الرسمية ملتزمة بمكافحة التمييز؛ ترى إليزابيث أن معظم المجتمع الكندي مجبر على تقبل الأقليات ولا يفعلها راضياً: «رأيت في العمل بعض الناس الذين يمثلون مشكلات كبيرة لغيرهم من الفئات... حول أي شيء يخص الفئة «الأخرى»، كما تعلمين، وإني أظن أن العنصرية وعدم التسامح يزيدان في مجتمعنا.» وفي رأيها أن من نتائج «كل هذا الحديث عن التصويب السياسي*... تولد قدر كبير من الكراهية والنفور والجهل»، وإن لم يظهر دائماً على السطح. ومن الواضح أن هذه المخاوف تتردد بين بعض قطاعات المجتمع الكندي، فقد قالت لي أنجلو كندية اعتنقت الإسلام إنها عندما بدأت ارتداء الحجاب في العمل قيل لها «تبدين وكأنك مهاجرة ملعونة».

هـ - الخلاصة

يناقش الجزء الأخير خبرات ارتداء الحجاب في تورونتو، ويبين أن المسلمات يواجهن تمييزاً كبيراً بسبب ما يلبسن؛ فالرؤية الشائعة للإسلام أنه دين شرير يحض على العنف وعلى قهر النساء. أما نساء عينتي فلا يرين الحجاب يرمز إلى القهر أو الإرهاب؛ وإنما إلى «الطهر» و«الاحتشام» وإلى «الهوية الإسلامية للمرأة» وإلى «طاعة الله والتسليم له والشهادة بأنك مسلمة». وتضيف حليمة: «إن الحجاب [يرمز إلى] قدرة المرأة على حفظ كرامتها وشهوتها الجنسية». أولئك النساء كنّ يشعرن بالسكينة وهن بالحجاب، ويستمتعن بارتدائه. فإذا كانت المنهجيات والأدوات المعرفية النسوية التي تتخذ الخبرة الحياتية أساساً للمعرفة تعني أي شيء، فهذه

* أي تجنب استخدام مفردات تسيء إلى فئات اجتماعية وإبدالها بغيرها غير السيئ مثل أفريقي بدلاً عن «أسود»، وذوي الحاجات الخاصة بدلاً عن «المعوقين»، وهكذا. (المترجم)

المعاني التي ترتبط بالحجاب لابد أن تؤخذ مأخذ الجد، ولا ينبغي اتهام النساء بالتمسك بمعتقدات «فاسدة» أو «زائفة» ولا يفترض أن يجبر أحد على قبول رأي هؤلاء النساء في الحجاب، ولكن إقامة حوار عن مزايا الحجاب ومثالبه يقتضي أن يفهم كل طرف موقف الطرف الآخر فهماً جيداً. وكانت مهمتي هنا عرض جانب المسلمات في هذا الحوار وجعله يسير الفهم لجمهور من الغرب.

obeikandl.com

هوامش الفصل الثاني وتعليقاته

(1) جاءت قضية إقليم الكويبك بعد مشكلة طرد التلميذات المحجبات في فرنسا في عام 1989. ومن الطبيعي أن توجد علاقات مباشرة بين الثقافة الفرنسية وثقافة الكويبك.

(2) Canadian Broadcast Commission, Prime Time News, July 1995.

(3) Jeffery Simpson, »The Current Objections to Muslim Clothing are Simply Wrong-headed«, Globe and Mail (Toronto, Canada: December 28, 1994), p.A16.

(4) LeBlanc, Letters to the Editor, Globe and Mail, (Wednesday, January 4, 1995).

(5) See Islamic Horizons (USA: November/December 1994) and The Message (Canada, January1995).

(6) Pat Mule and Diane Barthel, «The Return to the Veil», Sociological Forces, 7, 2 (June 1992), pp.323332-; Hessini, «Wearing the Hijab in Contemporary Morocco»; Macleod, Accommodating Protest.

(7) دراستا هيلين واطسون وديبرا ريس هما فقط ما وجدت عن المحجبات في الغرب:

Helen Watson, <Women and the veil Personal Responses to Global Process>, in Islam, Globalization and Postmodernity,(eds.), Akbar S. Ahmed and Hastings Donnan (London: Routledge, 1994); Debra Reece, «Covering and Communication: The Symbolism of Dress Among Muslim Women», The Howard Journal of Communications, 7 (1996), pp.3552-.

openkandil.com

تدرس عدد من الرسائل الجامعية خبرة النساء مع الحجاب في كندا:

Carmen G. Cayer, <Hijab, Narrative, and the Production of Gender Among Second Generation, Indo-Pakistani, Muslim Women in Greater Toronto, unpublished Masters«thesis (Dept. of Social Anthropology, York university, UK: 1996); Kelly, «Integrating Islam»; Shahnaz Khan, «Muslim Woman: Interrogating the Construct in Canada», unpublished Ph.D thesis (Ontario Institute for Studies in Education, Canada: 1995); and J. Zine, «Muslim Students in Public Schools: Education and the Politics of Religious Identity», unpublished Masters thesis (Dept. of Education, University of Toronto, Canada: 1997).

(8) Dorothy E. Smith, The Every Day World as Problematic: A Feminist Sociology (Toronto, Canada: University of Toronto Press, 1987), p.62.

(9) Smith, The Every Day World, p.35.

(10) L. Stanley and S. Wise, «Method, Methodology and Epistemology in Feminist Research Process», in Liz Stanley (ed.), Feminist Praxis (London: Routledge, 1990), pp.2122-.; also Smith, The Every Day World, p.108.

(11) انظر، مثلاً، إلى فيضان المقالات والكتب بقلم صحفيات يعرضن «حقيقة» النساء اللاتي «خلف الحجاب»

Geraldine Brooks, Nine Parts of Desire: The Hidden World of Islamic Women (New York: Doubleday, 1995); Jan Goodwin, Price of Honor: Muslim Women Lift the Veil of Silence on the

obeikandi.com

Islamic World (New York: Plume, 1994); Deborah Scroggins, Women of the Veil: Islamic Militants Pushing Women Back to an Age of Official Servitude«, The Atlanta Journal/The Atlanta Constitution (Sunday, June 28, 1992), pp.P112-.

ويعجبني تعليق هيلين واطسون عن هذا (الفيضان من الكتب عن النساء «خلف، وراء، تحت» الحجاب الذي يعطينا انطباعاً بأن النشاط الرئيس للمرأة المسلمة وأكبر إسهام لها في المجتمع أنها في (Women and the Veil, p.141) حالة حجاب).

(12) في دراسات عودة المصريات لارتداء الحجاب، يذكر غالباً أن الهدف اكتساب «الاحترام» في الأماكن العامة، وكذلك توفير المال نتيجة عدم اتباع الموضة. ولكن لم تكن هذه من بين الأسباب التي ذكرتها النساء اللاتي قابلتهن في المقابلات الشخصية.

See, El-Guindi, <Veiling Infitah>; Homa Hoodfar, <Return to the Veil: Personal Strategy and Public Participation in Egypt>, in Working Women : International Perspectives on Labour and Gender Relations, (eds.), Nanneke Redclift and M. Thea Sinclair (London: Routledge, 1991); Watson, Women and the Veil; John A. Williams, «A Return to the Veil in Egypt», Middle East Review, 11, 3, (1979), pp.4959-; Sherifa Zuhur, Revealing Reveiling: Islamist Gender Ideology in contemporary Egypt (New York: State University of new York Press, 1992).

(13) Smith, The Every Day World, p.142.

(14) Chandra Talpade Mohanty, «Introduction», in Third World Women and the Politics of Feminism,(eds.), C. Mohanty, Ann Russo, and Lourdes Torres (Bloomington, Ind.: Indiana University Press, 1991), p.29.

obeikandl.com

(15) يعد جون ويليامز استثناءً نادراً؛ فقد تحير الرجل لماذا بدأت المصريات في العودة إلى الحجاب بعد زمن كان أغلبهن يرتدين الزي الغربي: «ثبت أن المرأة المصرية ليست بالحَمَل المستكين. فلن يستطيع أحد أن يقنعهن بارتداء الملابس العصرية الأكثر أناقة وراحة بدلاً من الزي الشرعي ما لم يرغبهن هن في ذلك». (A Return to the Veil>, p.53>)

(16) Helie-Lucas, <The Preferential Symbol For Islamic Identity>, p.391. وقد ذهبت إلى حد مقارنة «الأصوليين» بالنازيين

(17) Personal Narratives Group, Interpreting Women's Lives, pp. 261 - 262 .

(18) أقول «الأخريات» لأن أغلب من قابلتهن في المقابلات الشخصية لم يعتبرن أنفسهن متدينات برغم محافظتهن على أركان الإسلام الخمسة، وكن يشعرن بضرورة الإكثار من الصلاة والمزيد من قراءة القرآن الكريم، ليكن متدينات بمعنى الكلمة.

(19) Yvonne Yazbeck Haddad, «Arab Muslims and Islamic institutions in America: Adaptation and Reform», in Arabs in the New World; Studies on Arab American communities, (eds.), Sameer Y. Abraham (Detroit, Mich.: Wayne State University Centre for Urban Studies, 1983), p.75.

(20) في عام 1989 أصدرت الحكومة التونسية قانوناً يحظر لبس الحجاب داخل المدارس والجامعات وأماكن العمل.

Omar Shahed, «Under Attack in Tunisia: Laws Restrict Islamic Practices», The Muslim Voice [Campus newspaper, Uni. of Toronto, Canada] (December, 1994), p.i. Summary of Muhammad al-Hadi Mustapha ZamZami, Tunis: Al-Islam Al-Jarih [Tunisia: Injured Islam.] (np.: 1994), pp.191194-.

obeikandl.com

وحسبما تقول وردية: تُقتاد النساء إلى أقسام الشرطة لتوقع تعهداً بعدم ارتداء الحجاب مرة أخرى.

(21) انظر ملحق (1) لترجمة موجزة لمن قابلتهن في المقابلات الشخصية.

(22) في رمضان (فبراير) 1997 ارتدت صفية الحجاب مرة أخرى. فامتنع زوجها عن الكلام معها لعشرة أيام داخل البيت، وبعد هذه المدة لم تتحمل صمته، فخلعت الحجاب ثانية.

(23) Karam, Women, Islamisms and the States, p.133.

(24) Ibid. p.139.

(25) انظر الفصل الثالث الهامش رقم (40).

(26) انظر ملحق (2) لنص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تشير إليها النساء فيما يخص زي النساء.

(27) تعتقد أقلية بوجوب تغطية الوجه، وبعضهم يرى وجوب تغطية الكفين أيضاً، انظر:

Abu Bilal Mustapha Al-Kanadi, The Islamic Ruling Regarding Women›s Dress: According to the Qur«an and Sunnah (Jeddah, Saudi Arabia: Abul-Qasim Publishing House, n.d)

بعض النساء اللاتي قابلتهن قلن إن الرجال كذلك، ينبغي أن يغطوا شعورهم، كعلامة على التدين والتواضع.

(28) ثلاثة من مذاهب أهل السنة الأربعة الكبرى ترى أن أعمال المنزل ليست جزءاً من مسؤوليات الزوجة:

Hammuda Abdalati, The Family Structure in Islam (Plainfield, Ind: American Trust Publications, 1979).

(29)Mule and Barthel, «the Return of the Veil», p.328.

Obeikandl.com

(30) Fatima Mernissi, »Virginity and Patriarchy«, in Women and Islam, (ed.), Aziza Al-Hibri (Oxford, UK: Pergamon Press, 1982), p. 189.

لابد أن كلمة «قناع» هنا تشير إلى «النقاب»؛ فمن الصعب تخيل أن غطاء الرأس الذي لا يخفي الوجه يمكن تشبيهه بالقناع.

(31) السؤال رقم (36) في المقابلة الشخصية. انظر ملحق (4).

(32) For example, Abul A>la Mawdudi, Purdah and the Status of Women in Islam (Lahore: Islamic Publications, 1972); Maryam Jameelah, Islam and the Muslim Women Today (Lahore: Mohammad Yusuf Khan, 1978).

(33) Louise Cainkar, «Palestinian-American Muslim Women: Living on the Margins of Two Worlds», in Muslim Families in North America, (eds.), Earle H. Waugh, Sharon Mclrvin Abu-Laban, and Regula Burckhardt Qureshi (Edmonton, Alta., Canada: University of Alberta Press, 1991), p.291.

(34) Suad Joseph, »Feminization, familism, Self, and Politics: Research as a Mughtaribi«, in Arab Women in the Field: studying your own Society, (eds.), Soraya Altorki and Camillia El-Sohl (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1988), p.36.

(35) Cayer, Hijab, pp.48 and 85.

أولئك الشابات يقاومن هذه المحاولات الوالدية لزواج مرتّب، وكان ارتداء الحجاب إحدى استراتيجيات المقاومة؛ لأن الشرع الإسلامي يمنح المرأة حق رفض أي طالب زواج.

(36) Clara Connolly, <Washing our Linen: One Year of Women Against Fundamentalism>, Feminist Review, no.37 (Spring 1991), p.72.

obeikandi.com

(37) كانت نادية الابنة الكبرى لأسرة آسيوية بريطانية من الجيل الثاني، وكانت تدرس الطب بالجامعة وهي أول امرأة في أسرتها تحصل على تعليم يتجاوز المستوى الثانوي، وقد بدأت ارتداء الحجاب في سن السادسة عشرة.

Watson, <Women and the Veil>, p.148.

(38) Sharon Mclrvin Abu-Laban, <Family and Religion Among muslim Immigrants and the Descendants>, in Muslim Families in North America, (eds.), Earle H. Waugh, Sharon Mclrvin Abu-Laban, and Regula Burckhardt Qureshi (Edmonton, Alta., Canada: University of Alberta Press, 1991), p.28.

وهي من الجيل الثاني وتنتمي للموجة الثانية.

See also Barazangi for similar views from first and second wave immigrants: Nimat Hafez Barazangi, <Arab Muslim Identity Transmission: Parents and Youth>, in Arab Americans: Continuity and Change, (eds.), Baha Abu-Laban and Michael W. Suleiman (Massachusetts: The Association of Arab American University Graduates, 1989), and »Parents and Youth: Perceiving and Practising Islam in North America«, in Muslim Families in North America, (eds.), Waugh, Abu-Laban, and Qureshi (Edmonton, Alta., Canada: University of Alberta Press, 1991).

(39) أخبرت امرأة باكستانية كارمن كاير أن باكستانيات كثيرات لا يستطعن فصم الارتباط بين الحجاب والتخلف، وهذا هو ما يجعل الأمر صعباً بالنسبة لأسر الطبقة العليا والمتوسطة أن تقدم امرأة على ارتداء الحجاب؛ فزوج هذه المرأة ساءه أن ترتدي زوجته الحجاب في كندا بعد الهجرة من باكستان، Cayer, Hijab, p.100

obeikandi.com

(40) كانت إليزابيث مصرة على أن يكون زوجها رجلًا لا «يتحرج» من حجاب زوجته، بل ويكون سنداً لها. أرادته أن يعرف أن ارتداء الحجاب «أمر طيب» وأن يكون «سعيداً فعلاً ... وفخوراً أريده أن يقول، كما تعرفين، هذه زوجتي وقد فعلت خيراً، لا سيما في هذه الثقافة، كما تعرفين، هاهي، وأنا فخور أنها ترتدي الحجاب».

(41) بعض من قابلتهن كارمن كاير في مقابلات شخصية قلن: إن ذلك كان سبب عدم ارتدائهن الحجاب، Cayer, Hijab, p.106

(42) انظر، مثلاً، ميشيل ليمون، فهي تقول إنها ترضى بغطاء الرأس في كندا ولكنها لا تقبل النقاب. وقالت إنه لا ينبغي السماح للمنقبات أن «يُعرضن في بلادنا كالإماء...فهذا استفزاز لكل النساء وللكرامة الإنسانية ولاحترام الذات».

M. Lemon «Understanding Does Not Always Lead to Tolerance», Facts and Arguments, Globe and Mail, Tuesday, January 31, 1995.

(43) كانت قصة رنيم هي الأسوأ من بين من قابلتهن في المقابلات الشخصية، برغم أن بعض صديقاتي يعرفن قصصاً أسوأ. فإحدى صديقاتي، عمرها تسعة عشر عاماً، خُيّرت بين خلع الحجاب والطرد من البيت؛ فتركت البيت ولم يسمح لها بزيارة أسرتها لأنهم لم يريدوا أن يراها الجيران. ولديّ صديقة أخرى كانت مضطرة لأن تتعايش مع أفراد أسرتها، الذين يقولون لها إن الإسلام «دين سيئ» . والحقيقة أن معتنقي الإسلام الذكور أيضًا يواجهون مثل هذه الاستجابات الأسرية، فتحكي إليزابيث أن شاباً في السادسة عشرة من عمره في تورونتو أجبر على ترك بيته بعد تحوله إلى الإسلام.

(44) Toronto Star (Sunday, May 14, 1996), p.F5.

(45) تفحص دراسة بارازانجي لخمس عشرة أسرة مسلمة، في أنحاء متفرقة من أمريكا الشمالية، الاختلافات بين الأجيال في رؤاهم للإسلام، وقد

obeikandi.com

وجدت أربعة ارتباطات رئيسة تحدد الهوية حسب السياق: إما إسلامي/ مسلم، سوري/ لبناني/ عراقي...إلخ؛ عربي أو أمريكي/ كندي. Barazangi, <Parents and Youth>, p.134 وقد وجدت دراسة «لافل» لأبناء المسلمين من أصل عربي في خمس وعشرين مدينة أمريكية شمالية، أن نساء الجيل الثالث اللاتي قابلتهن مقابلات شخصية تكيفن على نحو جيد، ولكنهن تمسكن إلى حد ما بهويتهن العربية أو الإسلامية حسب السياق؛ فعندما يكن بين عرب مسلمين، يشعرن كأنهن مسيحيات، ويشعرن كما يشعر العرب أو المسلمون بين المسيحيين الأمريكيين. [ففي أسرة من ثلاثة أفراد، قالت أكبر نسائها سناً: إنها لو انتمت إلى دين، فهو الإسلام، وقالت أصغرهن إنها «عادة» تعد نفسها مسلمة، وقالت الأخرى إنها تعد نفسها مسلمة «من حين لآخر»]

Emily Kalled Lovell, A Survey of Arab-Muslims in the United States and Canada>, in Isalm in North America: A Sourcebook, (eds.), Michael A. Köszegi and J. Gordon Metton (New York: Garland Publishing, 1992) p.70.

(46) Mrs. Khatija Haffajee, Carleton Board of Education, former chairwoman of the Ottawa Muslim Women>s Auxiliary, quoted by Ahmad F. Yousif, Muslims in Canada: A Question of Identity. (Ottawa: Legas, 1993), p.41.

(47)Ibid., p.75.

(48) يشبه هذا ما جاء في كتاب كارمن كاير «الحجاب» حيث تعبر نساء العينة عن وجود صراع بين الهوية الهندوباكستانية والهوية الكندية، وقال البعض منهن إن «الإسلام هو وطني»، وهكذا ربما كان الاختلاف يرجع إلى أسلوب إلقاء السؤال.

obeikandi.com